

مبارك الميلي



تاريخ الجزائر في القديم والحديث

الجزء الثاني



دار الكتاب العربي




عاصمة الثقافة العربية

مبارك بن محمّد الميلي

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمّد الميلي

الجزء الثاني



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـــوال: 070 91.77.73

الميلي، مبارك بن محمّد
تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج2/ مبارك بن محمد الميلي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.-- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 244ص؛ 24سم
ردمك: 3-06-833-9947-978
الإيداع القانوني: 159-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 10-2007 دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الثاني

في العصر العربي

غزا العرب الشمال الإفريقي. وفتحوه. وأسسوا به إمارة عربية تابعة للخلافة الشرقية. واخضعوا البربر لإمارتهم حينا من الدهر. ثم أخذوا كعادتهم يسترجعون قوتهم الحربية ويعملون للاستقلال. فاقتطعوا من تلك الإمارة جانبا من الوطن الجزائري أسسوا به دولة مستقلة. وهي الدولة الرستمية. ثم جاء إدريس الأكبر إلى المغرب الأقصى. وأسس به دولة مستقلة امتدت إلى النواحي الغربية من الجزائر. ثم استقل بنو الأغلب بتونس من غير ان يقطعوا صلتهم بالخلافة. وكان شرقي الجزائر تابعا لهم. ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت على هذه الدول الثلاث. وفي عهدها شغل البربر أهم مناصب الحكومة. وبلغوا أخيرا أن قطعوا صلتهم بالعبيديين واستقلوا بالحكم.

في القرن الخامس الهجري انقطع سلطان العرب على الجزائر. وقد كاد جنسهم ينقطع تبعا لسلطانهم لولا نزوح الهلاليين. وأبى الله الا أن يستوطن العرب شمال افريقية. ويبقوا جيرانا للبربر إخوانهم في الدين. والدين أمتن رابطة.

هذا الدور كله نطلق عليه العصر العربي، وإن كان أكثره عربيا بربريا، نظرا إلى أن الإدارة العليا بيد العرب في جميعه ما عدا الدولة الرستمية. فهو عصر عربي حقيقة في أوله وتغليبيا في باقيه.

وبهذا الاعتبار اشتمل هذا العصر على ستة أبواب:

الباب الأول في غزو العرب لافريقية وتأسيس إمارتهم بها.

الباب الثاني في الدولة الرستمية.

الباب الثالث في الدولة الادريسية.

الباب الرابع في الدولة الأغلبية.

الباب الخامس في الدولة العبيدية.

الباب السادس في نزوح الهلاليين إلى افريقية الشمالية.

الباب الأول

في غزو العرب لافريقية
وتأسيس إمارتهم فيها

جزيرة العرب:

جزيرة العرب هي الوطن الذي اختص العرب به واختص بهم. فلا يوجدون بغيره الا وهم منتقلون منه، ولا يوجد به غيرهم الا وهو طارئي عليهم من وطن آخر.

هذا الوطن واقع في الطرف الغربي من آسيا. يحده شمالا الشام، وشرقا العراق والخليج الفارسي، وجنوبا المحيط الهندي، وغربا بحر القلزم (**البحر الأحمر**).

ومن هذا التحديد تعلم أن إطلاق الجزيرة عليه غير منظور فيه إلى الاصطلاح الجغرافي: اذ الجزيرة عند الجغرافيين ما أحاط به الماء من جميع جهاته. وجزيرة العرب إنما أحاط بها الماء من أغلب جهاتها. فهي شبه جزيرة في عرف الجغرافيين.

وبجزيرة العرب سلسلة جبال موازية لبحر القلزم. تقطعها من الشمال إلى الجنوب وتنتهي بالمحيط الهندي.

وتنقسم الجزيرة إلى أقسام:

1- اليمن جنوبا: ويشمل حضر موت ومهرة والشحر وعمان. ومن أشهر مدنه صنعاء وعدن وظفار. ومن مدنه التاريخية مدينة أوفير. وهي تبعد عن عدن شرقا **(400)** ميل. ورد ذكرها في التوراة. وعفا رسمها. فلم تكتشف إلا في هذه السنة **(1346هـ)**

2- تهامه: وهي غرب الجزيرة على بحر القلزم بين اليمن والحجاز

3- الحجاز: وهو يلي تهامة شمالا على البحر. ومن مدنه الطائف ومكة وجدة والمدينة. وهو القسم الذي يشتمل على المشاعر الدينية للعرب في جاهليتهم، ولهم ولغيرهم من المسلمين بعد الإسلام.

4- نجد: في وسط الجزيرة. وهو هضبة فسيحة تربط بين بقية أقسام الوطن العربي: العراق شرقا، واليمن جنوبا، والحجاز غربا، والشام شمالا.

5- اليمامة: وهي بين نجد واليمن.

هذه الأقسام منها ما فيه الصحاري القاحلة والأراضي الخصبة الصالحة لضروب كثيرة من الحبوب والأشجار، وعليها مراس غنية باللؤلؤ والعقيق. وفيها معادن الذهب والنحاس والحديد وغيرهن.

العرب قبل الإسلام:

العرب أوضح الأمم نسبا وأبعدها عن الامتزاج والاختلاط. إتفقت الكلمة وأجمعت الآراء على أنهم من سام بن نوح. نزحوا من العراق إلى جزيرتهم في أعصر متفاوتة ومتناهية في القدم. واتخذوها موطنا حفظوا به

أنسابهم من الاختلاط، وحافظوا عليها من الاندماج المفضي إلى الاضمحلال.

وهم شعوب وقبائل تجمعها ثلاث طبقات:

1- العرب البائدة: وهي الطبقة المتناهية في القدم. سميت كذلك أما لبيود أخبارها وانقطاع الصلة بيننا وبين تاريخها. وأما لبيود قبائلها وفناء أعقابها بذوبانهم فيمن بعدهم من أجيال العرب. وكلا المعنيين صادق في الجملة: فان من هذه الطبقة من علمت أخباره ولو على سبيل الإجمال، ومنها من لم ينقطع عقبه.

ومن قبائل هذه الطبقة طسم وجديس وعاد وثمود ومدين وعمليق.

2- العرب العاربة: سموا كذلك لأصالتهم في العربية. وجذم هذه الطبقة قحطان. وأشهر قبائلها وأجمعها لبطونهم قبيلتا كهلان وحمير.

3- العرب المستعربة: وهم بنو إسماعيل الطارئون على القحطانيين. سموا كذلك لأنهم عبرانيون، واستعربوا بمخالطة العرب العاربة. وهم شعوب وقبائل يجمعها أصل عدنان المنتهي في نسبه إلى إسماعيل. وأجمع قبائلهم وأشهرها مضر وربيعة وإياد وانمار. ومن مضر قبيلة قريش.

ونحن نرى أن أول أساس للحياة البشرية هي الحياة الدينية التي تستمد من الرسل والأنبياء. فتكون في قرب عهدها بالرسل المستمدة منهم صحيحة. ثم تتغير بطول العهد بالمغالاة والابتعاد حتى تنحرف عن أصلها وتصبح وثنية.

ولم يخرج العرب عن هذه السنة الكونية. فانحرفوا عن الدين الحق، وتنكبوا الصراط السوي. فأرسل الله في قبيلة عاد منهم هودا، وفي ثمود صالحا، وفي مدين شعيبا. وذلك في أوقات مختلفة. فآمن من آمن منهم، وهلك من كفر. وبادت تلك الأديان ببيود أممها. وكان في الحجاز إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. فانتشرت على يده ديانة ابراهيم الخليل (ص) في العرب العاربة والمستعربة. وجاء بعض الاسرائليين بديانة موسى (ص) الى الجزيرة. فعتنقها بعض العرب. ثم بعد ظهور المسيحية أخذ بها بعض القبائل منهم.

ولم يزل جل العرب على ديانة ابراهيم (ص) غير أنهم أحدثوا فيها أحداثا وابتدعوا فيها بدعا. فصاروا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت. وقد يعبدون الأرواح كالجن والملائكة.

قال السهيلي: «**يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم. ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه**»[1]. وقال ابن هشام عن الطواغيت: «**وهي بيوت تعظيمها كتعظيم الكعبة: لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها. وهي تعرف فضل الكعبة عليها: لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده**»[2] وأصل عبادة العرب للأصنام أن أهل مكة

---

[1] الروض الانف ج1 ص62.

[2] السيرة المطبوعة مع الروض ج1 ص64.

كانوا لايظعن منهم ظاعن الا حمل معه حجرا من الحرم تبركا به. وحينما يقيم يضعه ويطوف به طوافه بالكعبة. وبطول العهد صاروا يعبدون ما أعجبهم من الحجارة.

وذكر السهيلي وجها آخر في أصل دخول الوثنية إلى العرب. وهو لا يتعارض مع ماسبق. قال: «**وقد ذكر البخاري عن ابن عباس: قال صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. وهي أسماء قوم صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: ان انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها انصابا، وسموها بأسمائهم. ففعلوا. فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنوسخ العلم عبدت**»[1].

وقد بقيت للعرب بقايا من شريعة ابراهيم (ص) كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن، مع إدخالهم في ذلك ما ليس منه. قال ابن هشام: «**فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده. يقول الله تبارك وتعإلى لمحمد صلى الله عليه وسلم: وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون**»[2].

---

[1] الروض ج1 ص62.

[2] السيرة ج1 ص63.

هٰذه الوثنية التي كان عليها العرب مع اعترافهم بوحدانية الله وإقرار بعضهم بالبعث وكونهم يقولون ـ كما جاء في القرآن ـ: «**ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى**» ـ هذه الوثنية هي التي لم يرضها منهم الإله جل وعلا، وأرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ليمحوها من قلوبهم ويذهب أثرها من بين أعينهم. وفي إسلام كثير منا ما يشبه هذه الوثنية، غير أن الإسلام لما كان أصله محفوظا بحفظ القرآن وضبط الحديث لا يحتاج في تجديده إلى نبوة جديدة وإنما يحتاج إلى أحياء أصله والتقاضي اليه والتراضي به حكما.

ولقد كان لهؤلاء العرب ملوك فخام ودول عظام. اشتهر من دولهم ثلاث: دولة التبابعة ودولة المناذرة ودولة الغساسنة. والدولة الأولى أسست في الألف الثاني قبل الميلاد. فان المؤرخين يذكرون منها ملوكا كثيرين قبل بلقيس التي كانت في زمن سليمان عليه السلام ابن داوود عليه السلام. وهي مؤسسة على أنقاض دولة قطحان التي كانت قبل الميلاد بنحو ألفي سنة. فهي أقدمهن عهدا وأكثرهن حضارة قبل الميلاد بنحو ألفي سنة. فهي أقدمهن عهدا وأكثرهن حضارة وأبقاهن أثرا وأوسعهن ملكا. كان منها بعد بلقيس شمريرعش حوالي المائة الثامنة (ق.م) ودخل أرض فارس. وخرب مدينة الصغد خلف نهر جيجون. وبنى مدينة هنالك سميت باسمه. وهي المعروفة اليوم بسمرقند. وقد وجد

في بعض قصورها المنهدمة عمود مكتوب عليه بالحميرية: «**هذا مابناه شمرير عش لسيدة شمس**».

دولتا المناذرة والغساسنة كانتا شمالا، ودولة التبابعة كانت جنوبا. ومعلوم أن الدول لاتقام الا بالعلوم والصناعات خصوصا وقد دلت الآثار على عظمة تلك الدول. قال صاحبا الوسيط: «**واذن تكون هند سة أرواء الأرض وعمارة المدن والحساب والطب والبيطرة والزراعة ونحوها معروفة في الجنوب والشمال، مدونة في الكتب، وإن لم يحفظ لنا الدهر صورا منها. أما البدو منهم وان كانوا أميين يمقتون الصناعات وينتقصون أهلها فلا غنى لهم عن تجربة ترشدهم إلى ما ينفعهم في بواديهم المقفرة ومجاهلهم الطامسة: ليعلموا ما به تصح أنفسهم وأنعامهم وتستطلع خفايا أمورهم وتدون فيه مفاخرهم، وليعرفوا متى تجود السماء، وبم يتميز الأقرباء من البعداء. فكسبهم ذلك علم النجوم والطب الضروري والأنساب والأخبار ووصف الأرض والفراسة والعيافة والقيافة والكهانة والعرافة والزجر وقرض الشعر**»[1].

قالا: واشتهر منهم في علم النجوم بنو حارثة بن كلب وبنو مرة ابن همام الشيباني، وفي الطب الحارثة بن كلدة الثقفي وابن حذيم التيمي، وفي الأنساب دغفل بن حنظلة الشيباني وزيد بن الكيس لنمري وابن لسان الحمرة، وفي القيافة بنو مدلج وبنو لهب، وفي الكهانة شق أنمار وسطيح

---

[1] الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص38.

الذئبي وطريفة الخير وسلمى الهمدانية، وفي العرافة الأبلق الا سدي عراف نجد، ورباح ابن عجلة عراف اليمامة، وفي الزجر بنو لهب وأبو ذؤيب الهذلي ومرة الا سدي. أما الشعر فقد اشتهر فيه كثيرون معروفة أخبارهم في كتب الأدب.

العرب بعد الإسلام:

قد رأيت أن العرب قبل الإسلام كانت لهم دول شمالا وجنوبا. أما قلب . . يرة فكان تحت امراء ورؤساء عديدين. فلم تكن لهم وحدة سياسية، وقد كادوا يفقدون استقلالهم قبيل الإسلام: إذ استولى الفرس على اليمن، وكان المناذرة تحت حمايتهم، والغساسنة تحت حماية الروم البيزنطيين.

وكانوا من حيث الدين أيضا على أديان مختلفة. فكانت الفوضى شاملة للوجهتين الدينية والسياسية.

والأمم غير العرب ليسوا بأسعد منهم في هاتين الوجهتين، بل أن العالم كله أمسى في فوضى عامة لايبصر في ظلامها الدامس سبيلا للرقي والكمالات البشرية. يشهد بذلك التاريخ الصادق.

وقد امتاز العرب عن غيرهم من أهل عصرهم بالأخلاق الفاضلة مثل الصدق والوفاء وحماية الجار إلى غير ذلك مما لا يسعنا تتبعه وامتازوا أيضا بقربهم من الفطرة. فكانت أذهانهم صافية وعقولهم راجحة.

كان العالم في حاجة شديدة إلى نور يهديه سبل الكمال، وصيحة عظيمة توقظه وتلفت نظره نحو ذلك النور. وكان العرب ـ كما قلنا ـ أقرب من غيرهم إلى الفطرة وأقوم أخلاقا. فكانوا أهلا لان يبدو من جزيرتهم ذلك النور، وان يكون صاحب الصيحة رجلا منهم قد عرفوا فضله على رجالهم وفضل عشيرته وقبيلته على عشائرهم وقبائلهم.

هذا الرجل هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. رجل أمي نشأ بين قوم أميين. وكان المثل الأعلى عندهم في الأخلاق الفاضلة من صدق ووفاء وأمانة ورأفة بالضعفاء وإحسان إلى عموم الناس. ناهيك أنه كان له عبد يدعى زيد بن حارثة، ولم يكن أبوه حارثة عالما بمكانه حتى عرف أنه في مكة. فقصده هو وعم زيد. وطلبا إلى ربه محمد أن يسرح ولدهما يذهبان به معهما. فأحالهما على اختيار زيد للإقامة معه أو الذهاب معهما. فقالا له: لقد أنصفتنا. وجاء زيد فاختار ربه على أبيه.

هذا الرجل الأمي الكامل في بشريته لم يجلس إلى العلماء ولا صاحب زعيما من الزعماء ولا خرج من بين قومه إلى أي بلدة سوى أنه سافر مرتين إلى الشام، والأولى كان فيها صبيا ابن اثنتي عشر سنة، تعلق بعمه وكافله أبي طالب عند خروجه اليه، فاستصحبه، والثانية كان فيها فتى قد عرف فضله وأمانته، فرغبت اليه خديجة في أن يذهب ببضاعتها إلى الشام تاجرا. ففعل.

لسنا نريد ان نشرح حياة هذا الرجل قبل ان يبلغ الأربعين شرحا وافيا. ولكنا نريد أن نعلم أنه عاش في تلك المدة كرجل أمي سوى ما كان عليه من خلق عظيم.

ولما بلغ الأربعين من عمره اصطفاه الله وعهد اليه بمهمة القيام بإصلاح المجتمع البشري من جميع مناحيه. تلك المهمة التي لم يقم بها أحد قبله، ولا يستطيع أن يقوم بها أحد بعده ولو قرأ في أعلى مدارس الفلسفة وعاش أكثر من قرن قضاه بحثا ودرسا عمليا. وبذلك كان محمد صلى الله عيه وسلم أفضل الخلائق على الإطلاق.

كانت الفوضى اذ ذاك بالغة منتهاها. فكانت دعوته بالغة منتهى التوحيد، إذ دعا الناس إلى عبادة إله واحد، والعمل بشريعة واحدة جامعة بين الوحدتين الدينية والسياسية، شاملة للسعادتين الدنوية والاخروية.

قضى في نشر دعوته بمكة ثلاث عشرة سنة قاسي فيها من كبراء قومه وسفهائهم ما لا يحتمله الا من خلقه الله وهيأه لان يكون أفضل الخلق أجمعين. ثم هاجر إلى يثرب حيث كان له أنصار. فأقام بها عشر سنوات، أكمل فيها برنامج دعوته، وقضى على معانديه بالسنان بعدما أفحمهم بالحجة والبرهان. فصار العرب يدخلون في دين الله أفواجا حتى لم يبق بجزيرة العرب غير من يدين بالإسلام.

هذا الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الجامع للفضائل الباطنية والظاهرية، الدال على طرق السعادتين الدنوية والاخروية. فكان خاتمة الأديان وأداة الكمال لنوع الإنسان.

دعا الناس عامة إلى الاعتقاد باله واحد. وحرض مجيبيه على التسامح مع أهل بقية الأديان ومعاملتهم بالجميل والإحسان. جاء في سورة الأنعام: «**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**». وجاء في سورة الممتحنة: «**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم. ان الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**». وقال صلى الله عليه وسلم: «**المسلم من سلم الناس من يده ولسانه**».

هذا الدين على موافقته للفطرة وفضله على البشرية عمل لتشويهه ومحوه أناس سرا تحت ظله. حتى إذا تم لهم صرف العامة من أهله عن صراطه السوي قام من بعدهم بمحاربته جهرا وصاروا يضعون على حسابه القواعد الفلسفية. واليك كلمة واحدة في هذا الموضوع ننقلها عن سلامة موسى أحد متجردي العصر وملحدي مصر. قال: «**وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة ازداد الكهنة قوة وجمدت نواهي الطبو. فتقيد فكر الإنسان. إنما يجب أن نذكر أن الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الأديان الحاضرة لأنها لم تكن قادرة على كل شيئا كما يعتقد الآن المسيحي أو المسلم في إلهه. فكان بين الإنسان وربه مجال للفكر في جملة**

موضوعات لايستطيع أهل الأديان الحاضرة ان يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرته الآلهة»[1].

خلاصة كلامه هذا تفضيل الوثنية على الوحدانية اعتمادا على تلك الشبهة التي لبس بها على بسطاء العقول ممن يفزعون إلى الأخذ بالجديد من الأفكار مطلقا فزع النساء إلى الجديد من الأزياء.

نظرته هذه نظرة خيالية لاتتفق ومفعوله الديانة الإسلامية وفضلها على البشرية جمعاء كما ينطبق تاريخها أيام عظمتها. وعلاوة عن كون هذه الفلسفة النظرية تدحضها الفلسفة العلمية نزيد دحض هذه الشبهة من الوجهة النظرية أيضا: إن الوثنيين يعتقدون في آلهتهم المتعددة القدرة على كل شيء مثل ما يعتقد المسلم في إلهه الواحد، غير أن الآلهة الوثنية ليس لعبادتها نظام ولا لمرضاتها سبيل مقرر انتهاجها، وهذا الاله الواحد عبادته مضبوطة وأوامره مقررة. وهو يأمر البشر بالنظر في ماضيهم لإصلاح مستقبلهم، وان نظام هذا الكون واحد: ما كان علة لانحطاط الماضين فهو علة انحطاط الآتين، وما كان سببا لرفعة أولئك فهو سبب لرفعة أولاء **«سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا»**.

كل هذا لا يخفى حتى على سلامة موسى وإضرابه. ولكن هي الأهواء ودعاية الكيد للإسلام عامة والعرب خاصة[2].

---

[1] حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ص25.

[2] اشتد كلب الزارين على الاسلام والعرب في هذه الأيام لظهور دولة عربية اسلامية هي دولة عبد العزيز بن السعود. وقد رأيت في عدد واحد من الهلال (الجزء الخامس من السنة السادس والثلاثين).=

وان عذلت في هذا الاستطراد القصير فسيعذرني من رأى تحامل هؤلاء الرهاط على الإسلام والعرب متسترين بالفلسفة النظرية متجاهلين الحقائق الواقعية.

إعتز العرب بهذا الدين واستجدت كلمتهم واستجدت قوتهم. فعظمت دولتهم وتمكنت في قلوب الأعداء هيبتهم. فأخذوا يفتحون البلدان ويستولون على الأوطان بسرعة ليس لها في تاريخ البشر مثيل وليس ذلك بتقدمهم على الأمم الأخرى في الفنون الحربية واختراعهم للأسلحة القاضية على النفوس المخربة للعمران. وانما بعدل أمرائهم وإخلاص جيوشهم وكفاءة قوادهم. وهذه ميزات لاتوجد في محاربيهم. اختصوا بها: لبعدهم عن النعيم والترف الموجبين للراحة وسآمة مقارعة الخطوب، ولكونهم متدينين بدين مهذب للنفوس ومعتقدين باله واحد مطلع على القلوب لاتخفى عليه خيانة خائن ولاجور جائر.

=التي تدعى بعدها عن السياسة والدين التحكك بالاسلام في ثلاثة مواضع: الأول (ص555) جاء فيه أن الاباحة أوفق من الحظر وأن الجبر شر منه. ومثل للجبر بجبر الوهابيين الناس على الصلاة. وخفى عليه أن ضرر الجبر إنما يكون إذا كان المجبور غير معتقد الخير فيما أجبر عليه. وهؤلاء مسلمون يرون الصلاة أهم ركن في دينهم الذي يرون نسبتهم لغيره سبة لا نظير لها.

الثاني (ص611) جاء فيه أن المنع احسن من الإباحة، نقيض الأول. ولكن سهل هذا التناقض أن الأول ضد الجبر على الصلاة والثاني ضد اباحة الطلاق. وكلاهما يتفقان معزى.

الثالث (ص586) جاء فيه أن الجرائم تكثر تبعا للحضارة وتقل مع البداوة (والوهابيون في نجد أقل جرائم منا ودعائم الأمن أرسخ عندهم مما هي عندنا، لا لانهم أكثر خشية للعقوبة بل لأن وسائل الجريمة عندهم قليلة لا تتعدى سرقة الماشية أو الملابس). ولا أدري أهذا الفيلسوف.. يعتقد أن الحجاز على عهد الأتراك والشريف حسين كان أرقى حضارة منه على عهد ابن السعود؟ لا يا فيلسوف أنه لا علاج للاجرام غير التهذيب الديني وعدل الحاكم، ولا سبب لكثرتها غير استبدال الإيمان بالمادة بالإيمان باله عالم قادر.

ومما يدلك على شدة تأثير الإسلام في العرب وسرعته وفضله في تطهير القلوب وإنارة العقول اتفاقهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على تقديم أبي بكر لخلافته وإسراعهم لذلك، وهم الذين كانوا لايدينون لأحد بالطاعة، وكل يرى نفسه أميرا. هؤلاء صاروا يخضعون لرجل واحد ليس له سلف في الملك والإمارة، ويحسنون انتخابه واختياره. وإن أرقى أمة اليوم في العلم وأعرقها في الحضارة لم تزل تفتك بها الأغراض الشخصية في الانتخابات العمومية.

ومن كلام أبي بكر الدال على فضله وكفائته خطبته التي خطبها في اليوم الثاني لخلافته. قال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: «**أيها الناس! قد وليت عليكم ولست بخيركم. فان أحسنت فأعينوني، وان أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ان شاء الله تعالى. ولا يدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم**».

ومن كلامه الدال على عدله وحسن سياسته وصيته لجيشه الذي وجهه إلى الشام. قال: «**عليكم بتقوى الله في السير والعلانية. وإذا قدمتم على جندكم (يخاطب القواد) فأحسنوا صحبتهم وأبدأوهم بالخير. وإذا وعظتموهم فأوجزوا فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا.**

وأصلحوا أنفسكم يصلح الناس. وصلوا الصلوات في أوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها. وإذا قدم عليكم رسل الأعداء فأكرموهم، وأقللوا لبثهم حتى يخرجوا من عسكركم وهم جاهلون به. وأكثروا حرسهم، وبددوهم في عسكركم، وأكثروا مفاجأتهم بمحارسهم بغير علم منهم بكم، فمن وجدتموه غفل عن محرسه فأحسنوا أدبه وعاقبوه. وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له».

ولما احتضر دعا بعض الصحابة منهم عثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف. وأعلمهم برأيه في استخلاف عمر. فاستحسنوه. ودعا عثمان ليكتب العهد. وأملي عليه: **«بسم الله الرحمان الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر: إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب. ولم آل لكم خيرا. فأن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».**

نكتفي بهذه النتف من كلام أبي بكر عن بقية خطبه وخطب بقية الخلفاء وعظماء القواد، اذ لايتسع المقام لذلك ولا لتتبع سيرهم وأعمالهم

ولا لشرح فضل الإسلام في نهضة العرب وعظمتهم وتكوين مدينة أساسها العقل الصحيح وأثرها سعادة البشر عامة.

العرب في افريقية:

في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح العرب الشام ومصر وطرابلس. وفي عصر عثمان (ض) دخلوا افريقية.

في سنة (27هـ -647م) صدر الأمر من الخليفة لوالي مصر عبد الله بن سعد بني أبي سرح العامري بالهجوم على افريقية. فقدمها بعشرين ألفا. وكان في جيشه من وجوه الصحابة أهل الشجاعة والدهاء مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس وعقبة بن نافع. فخرج إليهم جرجير صاحب سبيطلة بمائة وعشرين ألفا من الروم والبربر. والتقى الجمعان على مسافة يوم وليلة من سبيطلة. فاستعر القتال بين الفريقين. وانتهت المعركة بقتل جرجير وانهزام جيشه.

وبعد هذا الانتصار المشجع المرعب دخل العرب سبيطلة، وانتشروا في البسائط والسهولة، يشنون الغارات على الروم والبربر. وبلغوا في غاراتهم قفصة، وفتحوا قصر الأجم صلحا.

وبعد سنة وثلاثة أشهر أقامها الجيش العربي بافريقية طلب أهلها الصلح، وتحملوا لعبد الله بن أبي سرح بمال عظيم قبل انجلاء العرب عنهم. فقبل المال. وعاد إلى مصر يحمل غنائم جليلة.

بلغ هرقل إمبراطور القسطنطينية خبر انهزام الروم والبربر، وما تحملوه من المال لابن أبي سرح. فغضب عليهم، ونقم منهم تسليم ذلك المال للعرب. فأمرهم أن يؤدوا له من المال مثل ما أدوه للعرب. ووجه بطريقا لتنفيذ هذا الأمر. فلما نزل البطريق بقرطاجنة وأعلمهم أمر الامبراطور حنقوا عليه وقالوا: الواجب في هذه الحال أعانتنا لا تغريمنا. وأصر البطريق على تنفيذ أمر الامبراطور. فأفضى الجدال إلى القتال، وانتصر البطريق عليهم. وخلع ملكهم الذي نصبوه مكان جرجير. فذهب إلى الشام مستنصرا بالعرب.

قضى البربر والروم ثمانية عشر سنة بعد انجلاء العرب عنهم في الفوضى. وشغل العرب عن العود إلى غزوهم بما كان من شأن الثورة على سياسة عثمان (ض) ثم قتله الذي نشأت عنه حرب علي (ض) مع عائشة (ض) ثم معاوية (ض).

أفضت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان (ض) فطلب منه ملك افريقية المخلوع أن يعينه على استرجاع منصبه. فوجه معه جيشا عربيا بقيادة معاوية بن حديج السكوني الكندري الصحابي. ولما بلغوا الإسكندرية توفي الملك المخلوع، مضى الجيش لطيته.

كان مجيء معاوية سنة (**45هـ -665م**) في عشرة آلاف، فيما من عظماء العرب أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الملك بن مروان. وخرج البطريق لملاقاتهم في ثلاثين ألفا. فانهزم عند قصر الأجم.

وفتحت سوسة وبترزت وجربة، وغزيت صقلية. واتخذ معاوية آبارا للجيش بمكان القيروان.

وفي سنة (46 أو 47هـ) استقدم الخليفة معاوية بن حديج، وولاه على مصر وافريقية. ثم انتزع منه افريقية. ثم عزل عن ولاية مصر سنة (50).

وبعد معاوية أرسل الخليفة إلى افريقية عقبة بن نافع الفهري. قيل سنة (46) وقيل سنة (50) وفي كتب الأفرنج: أنه جاء سنة (668م) غازيا ثم سمي واليا عليها سنة (669م). ولعل هذه الرواية تقرب الجمع بين روايتي مؤرخي العرب، فيكون مجيئه سنة (46) أو بعدها بقليل بصفة أمير جيش، وفي سنة (50) الموافقة لسنة (669م) سمي واليا.

اشتغل عقبة بإخضاع البربر والروم لولايته، وتثبيت قدم العرب بافريقية. فأسس مدينة القيروان سنة (50) (670م) بمواد من الخرابات الرومانية. ثم عزله معاوية. وولى على مصر وافريقية معا مسلمة بن مخلد.

العرب في الجزائر:

في سنة (50) عزل الخليفة والي مصر معاوية بن حديج. وولى مكانه مسلمة بن مخلد الأنصاري. وجمع له بين ولايتي مصر وافريقية.

وفي سنة (55) (675) م استعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر دينار. فقدمها وأساء عزل عقبة. وخرب مدينته القيروان. وأسس أخرى قربها. وأخذ يغزو ويفتح.

وكان من ملوك البربر ملك يدعى كسيلة، قد جمع جموعه بالمغرب الاوسط، وزحف بها لقتال المسلمين. فخرج إليه أبو المهاجر، وهزمه حول تلمسان. قال غروت: «**بوادي أسر**»[1]. وظفر به. فاعتصم بالإسلام. فاستبقاه. وقربه. قال الزياني: وتوجه أبو المهاجر لغزو البربر. فبلغ تلمسان. ونزل على عيون تحتها. فسميت به الآن. وقال ابن خلدون: «**وبه سميت عيون أبي المهاجر قريبا منها**»[2].

قال الزياني ما ملخصه: أن أبا المهاجر بعد عوده من غزو المغرب الأوسط خرب القيروان. وأسس أخرى أنزل بها حامية المسلمين. وأقام هناك على أن بلغته وفاة معاوية. وفي غروت: أنه نقل مركز الولاية إلى ميلة. و لم أقف على هذه الرواية في غيره. ويظهر أن رواية الزياني أصح.

ولما أفضت الخلافة إلى يزيد بن معاوية أعاد عقبة إلى ولاية افريقية. فقدمها سنة (62) (681) م وانتقم من أبي المهاجر. فاعتقله. ونكب صاحبه كسيلة. وخرب مدينته. وعمر القيروان من جديد. ثم أخذ في غزو الروم والبربر.

---

[1] وادي اسر منبعثه من جبال جنوب تلمسان. وينعطف شرقيها ويميل مغربا. فيمر شمالها. إلى أن يلتقي بنهر تافنا. وقد ذكره في المغرب 77 وفي بلاد القبائل واد آخر يدعى أسر أيضا. وليس بمراد هنا.

[2] ج7 ص76.

بلغ مدينة باغاية. والتقى هناك بجموع البربر والروم. قال البكري: **«فدارت بينهم حروب عظيمة. وكانت الدبرة فيها على أهل باغاية. فهزمهم عقبة بن نافع. وقتلهم قتلا ذريعا. ولجأ فلهم إلى الحصن. وغنم منهم خيلا لم يروا في مغازيهم أصلب ولا أسرع منها، من نتاج خيل أوراس. فرحل عنهم عقبة. ولم يقم عليهم كراهية أن يشتغل بهم عن غيرهم»**[1].

ومنها توجه إلى لمبس (**تازولت**). واشتد دفاع الروم والبربر عنها. وكان النصر حليف العرب. ثم سار إلى الزاب. وسأل عن أعظم مدنه. فقيل له: مدينة أربة[2] فقصدها. وبلغها عشية. ومن الغد هجم عليها. وكان البربر قد هابوه والتجأوا إلى حصونهم. فلما هجم عليهم دافعوه. واستعر القتال بين الفريقين. ثم انجلى عن هزيمة البربر. وتركوا قتلى كثيرين. ومن أربه سار إلى تيهرت. وانتصر بها على جموع البربر والروم. ومنها توجه إلى المغرب الأقصى. فجاس خلاله بسرعته المدهشة حتى بلغ

---

[1] المغرب ص 145.

[2] نقل الكعاك بهامش موجزه عن اليعقوبي: أنها آخر مدن الزاب مما يلي المغرب، وعن النويري: أنها قصبة الملك ومجمع الأمراء، حولها نحو ثلاثمائة وستين قرية آهلة عامرة. وقال ابن خلدون: أنها قاعدة الزاب (186:4).

وبعمالة وهران قرية قديمة تدعى أربة، وأخرى حديثة تدعى كذلك أيضا. ويعبرون عن تثنيتهما بلفظ أربوات. وحولهما قرى كثيرة متقاربة، بعضها عامر وبعضا خرب. وهما يبعدان عن تيهرت بنحو ثلاث مراحل إلى الجنوب الغربي.

والظاهر أن أربة القديمة التي بعمالة وهران اليوم هي المرادة. وليس في عبارة المؤرخين ما ينافي ذلك سوى قول ابن خلدون: أنها قاعدة الزاب. ولايبعد أن يكون غالطا في هذا التعبير.

المحيط الأطلانتيقي. ثم قفل راجعا إلى القيروان. وأذن لجيوشه في اللحاق بها.

وكان أبو المهاجر في اعتقاله مصاحبا لعقبة في غزواته هاته ومعه أيضا كسيلة. وكان يستهينه. قال ابن خلدون: «**يقال أنه كان يحاصره في كل يوم، ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه**»[1].

أبو المهاجر ـ وإن بينه وبين عقبة حزازات شخصية ـ لم يكن ليخون دينه ودولته. فأخذ يشير على عقبة باصطناع كسيلة، ويوقظه إلى سوء سياسته، ويذكره بسيرة رسول الله (ص) مع جبابرة العرب واستئلافه لهم. كل ذلك لم يلين من سورة عقبة، فلم يقلع عن سياسته.

ولما انتهى إلى مدينة طبنة صرف الجنود إلى القيروان. ولم يبق إلا في طائفة قليلة ثقة بانتصاراته على البربر، واستخفافا بشأن كسيلة. وسار في تلك البقية قاصدا تهودا ليترل بها الحامية.

علم كسيلة بقلة من بقي مع عقبة فأرسل إلى الروم والبربر يعلمهم بذلك. وأرسل أيضا إلى الكاهنة صاحبة جبل أوراس. فأقبلوا في جموع عظيمة. وأحاطوا بشرذمة عقبة. فلما رأى كثرتهم وقلته علم أنه مستشهد لا محالة. فسرح أبا المهاجر وقال له: الحق بالقيروان، فقم بأمر المسلمين. وأنا أغتنم الشهادة. وكان أبو المهاجر تتيسر له النجاة لما بينه وبين كسيلة من المودة. ولكنه أبى أن يرجع سالما ويهلك عقبة. فأجابه بقوله: وأنا

---

[1] ج4 ص186.

أغتنمها أيضا. هكذا كان أسلافنا، إذا كان بينهم أشياء شخصية لا يذكرونها وقت الشدة، ويتناسونها أمام الصالح العام.

لما أحاط البربر والروم بأصحاب عقبة نزلوا عن خيولهم وكسروا أجفان سيوفهم استطابة للموت على الأسر، وحبا في الموت الشريف، وكراهية للحياة إذا كان فيها ذل وهوان. فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم. وكانوا زهاء ثلاثمائة من الصحابة وكبار التابعين.

قال ابن خلدون: «**وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد. وقد جعل على قبر عقبة أسنمة، ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه. وهو في عداد المزارات ومظان البركة. بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد احدهم ولا نصيفه**»[1] ومسجد عقبة هو المسجد الجامع للقرية التي تعرف لعهدنا هذا باسم سيدي عقبة. وضريحه داخل المسجد.

وظاهر كلام ابن خلدون ان عقبة صحابي. وهو ليس كذلك. وانما ولد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فقط ولذلك يقولون فيه: صحابي بالمولد. فإطلاق الصحابي عليه توسع. وصريح كلامه ان تلك القطعة من وطن الجزائر أشرف بقعة تزار يريد غير البقاع التي عرفت للأنبياء.

[1] ج6 ص146-147.

وكلامه هذا صحيح. فالجزائر مفخرة لا ينازعها فيها وطن آخر بضمها لأجساد أولئك العظماء في الدين والتاريخ، عظماء في الدين لأنهم من أهل القرنين المفضلين على ما بعدهما من القرون، وقد ماتوا شهداء، واليهم يرجع الفضل في إسلامنا الذي نعده أنفس شيء أخذه الإسلاف عن أمثالهم، وأعز تراث تركه لنا الأجداد الأمجاد، وعظماء في التاريخ لأنهم جاسوا خلال الشمال الإفريقي من تونس إلى سوس الأقصى في ظرف ثلاثة أعوام ـ على ما في الزياني ـ من غير معرفة بهذا الوطن ولا مساعدة من أهله.

وإن عقبة بن نافع لجدير بأن يخص بالتأليف فإنه من أعظم أبطال التاريخ، غزا الروم بحرا من مصر. وافتتح غدامس وذهب منها إلى ودان ففزان. وانتهى إلى السودان وفتح كورامنه. كل هذه قبل أن يشرع في حرب افريقية. وإن من نظر إلى أبعاده في الغزو وانتصاره على العدو مع تماثل السلاح وفقد وسائل النقل والاطلاع إذ لم تكن لهم آلات هذا العصر وخرائط الجغرافية ـ من نظر إلى ذلك مع تلك الحال أكبر عقبة أيما إكبار، وأكبر تغافلنا عن تاريخ عظمائنا، الأمر الذي جرأ كثيرا من خونة التاريخ أو الجاهلين به المتطفلين عليه على تشويه ماضينا ودوس حاضرنا.

الجزائر تحت ملوك البربر:

البربر بعد قضاء الرومان على دولهم الكبرى بقوا يتطلبون الاستقلال حتى نالوا منه حظا وافرا على عهدي الوندال والروم. لكن لم يكونوا دولا عظمى كسابق عهدهم. وانما كانوا طوائف تحت ملوك متعددين، قد مر ذكرهم.

ولما جاء العرب وجدوا أمامهم دويلة جرجير. فقضوا عليها بسهولة، وانضم الروم إلى البربر. وصاروا يدا واحدة على العرب. وهؤلاء ملوك البربر الذين عرفوا في بداية الفتح العربي:

1- **صولات بن وزمار**: كان أميرا على قبيلة مغراوة. وأسلم في عهد عثمان بن عفان (ض) قيل وفد عليه مهاجرا، وقيل أسيرا، أسره عبد الله بن أبي سرح. وعقد له عثمان على قومه. وبقي لعقبة ملك في العصر العربي.

2- **سترد ير بن رومي**: كان أميرا على قبيلة أوربة. قال ابن خلدون: «**ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة. وأدرك الفتح الإسلامي. ومات سنة إحدى وسبعين**».

3- **كسيلة بن لزم**: كان على قبيلة أوربة. قال ابن خلدون: «**وولي عليهم من بعده (يعني ستردير) كسيلة بن لزم الأوربي. فكان أميرا على البرانس كلهم. ولما نزل أبو لمهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة ابن لزم مرتادا بالمغرب الأقصى في جموعه من أوربة وغيرهم.**

فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام. فأسلم. واستنقذه وأحسن إليه وصحبه»[1].

وقال غروت: «**اتفقت كلمة البربر على قبول رئاسة كسيلة. وكان الوطن تحته مستقلا تماما. وهذه أول مرة اتحد فيها البربر تحت ملك واحد**».

ولم يزل كسيلة على الإسلام في صحبة أبي المهاجر حتى قدم عقبة ونقم منه تلك الصحبة وأمتهنه. فضغن عليه وأسرها في نفسه حتى أمكنته الفرصة. فحشد له جموع البربر والروم. فاحتشدوا. واستشهد عقبة وأبو المهاجر وغيرهما. قال ابن خلدون: «**وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم. ففداهم بن مصاد صاحب قفصة**»[2].

بعد هذه الوقعة الغريبة ـ وهكذا كل ما يتعلق بعقبة غريب ـ اجتمع إلى كسيلة جميع من في المغرب من بربر وروم. فزحف بهم إلى القيروان. وكان بها زهير بن قيس البلوي. تركه عقبة خليفة عنه بها. فلما بلغه خبر عقبة وزحف كسيلة اعتزم القتال. فخالفه حنش بن عبد الله

---

[1] ج6 ص146 وفي كلامه نظر إذجعل وفاة ستردير سنة 71 وولاية كسيلة بعدها. ثم يقول: ان كسيلة لاقى بعد ولايته أبا المهاجر سنة 55، على أن كسيلة نفسه لم يعش إلى سنة 71 فكيف ولي بعدها. ولا تستقيم روايته إلا بأن يكون ستردير توفي قبل سنة 55 أو يكون كسيلة ولي حياته.

[2] ج6 ص147.

الصنعاني واتبعه الناس. فلم يسع زهير الا متابعتهم. فارتحلوا من القيروان. وبقي زهير ببرقة ينتظر مدد الخليفة.

دخل كسيلة القيروان. والفى بها بقايا من العرب ثقلوا عن الارتحال. فأمنهم. وأقام بها أميرا على المغرب خمس سنوات. اشتغل أثناءها بتعمير ما خربته الحروب من الوطن. وكان حبل الخلافة في هذه المدة مضطربا بما كان من ثورة عبد الله بن الزبير التي أستمرت إلى زمن عبد الملك وثورات غيرها .

ولما قضى عبد الملك بن مروان على الثورات أرسل سنة **67** المدد إلى زهير بمكانه من برقة. فزحف إلى القيروان في آلاف من العرب. وخرج له كسيلة في جموعه والتقى الجمعان بنواحي القيروان. ووقعت بينهما معارك شديدة. حكمت أخيرا بفوز العرب. وقتل فيها كسيلة وكثير من أشراف البربر ورجالاتهم.

بعد هذه المعركة الفاصلة تتبع زهير البربر حتى وادي ملوية. وقد ظن أنه قلم أظفار البربر نهائيا. وذلك غلط وقع فيه قبله عقبة. فحسب ان الأمن قد استتب. فزهد في الإمارة. وارتحل من القيروان مشرقا. فاستشهد ببرقة مقاتلا للروم.

4- دهيا بنت ينفاق الشهيرة باسم الكاهنة: كانت أميرة على جرواه من زنانة بجبل أوراس. قال ابن خلدون: «**وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها. فاستبدت عليهم**

وعلى قومهم بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم. فانتهت إليها رئاستهم. وملكت عليهم خمسا وثلاثين سنة. وعاشت 127 سنة. وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها»[1].

ولما غادر زهير القيروان واستشهد ببرقة أمر عبد الملك بن مروان عامله بمصر حسان بن النعمان الغساني بفتح افريقية. قال البكري: «**فخرج إليها في المحرم سنة ثمان وستين**»[2] وكان الروم بعد تخريب سبيطلة يلتجئون إلى قرطاجنة. فقصدها حسان وفتحها عنوة ثم خربها. وقضى بذلك على الروم. ولم يبق أمامه الا البربر. فسأل عن مكان الشوكة منهم. فدل على الكاهنة بجبل أوراس. فتوجه إليها.

بلغ الخبر الكاهنة. فذهبت إلى باغاية. وهدمت أسوارها خشية ان يفتحها حسان ويتحصن بها. وسارت من هنالك إلى مسكيانة. وكانت لها بها حصون.

فالتقت بجيوش حسان. وتقابل الجمعان. على وادي مسكيانة. فاقتتلوا قتالا شديدا. وحكمت المعركة للكاهنة. فهزمت العرب وسارت في أثرهم حتى أدخلتهم تراب طرابلس. وأسرت منهم نحو ثمانين. فسرحتهم سوى خالد بن يزيد القيسي فإنها أبقته لديها وتبنته .

---

[1] ج7 ص9.

[2] المغرب ص7 واعاد ذكر حسان (ص37) وساق نسبه هكذا: حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر الازدي.

أصبحت الكاهنة بعد هذا الانتصار ملكة على ما بين السرت والمحيط الأطلانتيقي. قال غروت: «**وجعلت عاصمتها تيسدروس**».

ومع اتساع ملكها هذا وانتصارها لم تزل رهبة العرب من قلبها و لم تشك في أنهم سيعودون لحربها. وظنت أنهم مثل الرومان: إنما يحاربون لتين المغرب وخيراته. فقطعت أملهم ـــ على ظنها ـــ بأن أمرت بتخريب المدن والحصون ونسف العمران. وقالت لقومها: نحن إنما نريد المزارع والمراعي. ولا شأن لنا بما عدا ذلك. فعلت هذا من جهة. واتخذت يدا عند العرب من جهة أخرى بتسريح أسراهم والإحسان إلى خالد. فاحتاطت لنفسها وقومها من جهتين. ولكنها لم تفهم غرض العرب من غزو افريقية. فكان أمرها ذلك خاليا من الحكمة. فقد أفسدت عليها البربر بذلك. وصاروا مضمرين نصرة حسان عليها ان عاد لحربها.

حسان بعد هزم الكاهنة له أقام ببرقة بأمر من عبد الملك منتظرا انجاده. وكان عبد الملك في شغل عن ذلك بفتن داخلية. وفي سنة **(74)** جاء المدد إلى حسان فخرج من برقة لغزو الكاهنة. وكان على علم بتضعضع مركزها بما كان بينه وبين خالد من الصلة السرية.

تلقاه البربر وبقايا الروم هذه المرة بوجه غير الأول. فبذلوا له طاعتهم. وأمدوه بالأموال. وأدركت الكاهنة خذلان الأمة لها. فتحصنت بعاصمتها. وقضت بها ستة أشهر تحت الحصار. ثم غادرتها من نفق وناوشت العرب القتال من غير ثبات لعدم ثقتها بالبربر.

قال غروت: «**بعد أن أيست الكاهنة من النصر ورأت خذلان البربر واليونان لها أرادت الانتقام منهم. فأرسلت إلى حسان تعرض عليه إسلامها وإسلام من بقي تحت أمرها، والوقوف في صفه. ووجهت ذلك مع ولديها. فلم يقبل حسان. وأسر الولدين. وإذ ذاك تأخرت إلى أوراس. وكانت لها بنت تدعى مشوشة، وقد أعدت لها ملجأ هنالك بمكان يدعى جفة. وتمكنت بذلك من دفاع العرب مرارا. ولكنهم دخلوا أخيرا ملجأها. ففرت وقتلت في طريق فرارها عند بئر تدعى بئر العطر ثم أطلق عليها بئر الكاهنة. وذلك سنة 705م**».

وفي كلامه هذا نقطتان غير مسلمتين: أولهما أن مؤرخي العرب لم يذكروا أسر حسان للولدين. بل ذكروا أنه عقد لهما على قومهما بعد والدتهما. وهذا هو الصحيح الموافق لما عرف عن العرب جاهلية وإسلاما من عدم الإساءة إلى الرسول، والموافق أيضا لما عرف به حسان من الحنكة السياسية، إذ لو فعل ذلك لنفر منه البربر. ثانيتهما ان غيره ذكر ان قومها دعوها إلى الإسلام لما أيقنوا بهلاكها فامتنعت منه وامتنعت من الفرار أيضا. ومن كلامها في هذا الشأن ما في تاريخ دول الإسلام: «**إنما الملكة من تعرف كيف تموت**»[1] وفي موجز الكعاك من خطابها لقومها: «**الفرار عار وسبة في وجه أمتي. والتي قادت البربر والروم ضد العرب يجب ان تموت موت الملكات**».

---

[1] ج1 ص 240.

ولا شك أن طلبها الإسلام طمعا في النجاة لا عن إيمان إنما هو نوع من الفرار. ويؤيد عدم طلبها للإسلام إنها لوفعلت ماقاتلها حسان. وكل من له المام ضعيف بتاريخ الإسلام يعلم أن العرب لايقاتلون الا بعد ان يعرضوا على محاربيهم الإسلام أو الجزية. فكيف يعقل رفض حسان لاسلام الكاهنة وهو إنما يحارب لتلك الغاية؟

والخلاصة أن رواية غروت فيها طعن في أعظم رجل من فاتحي المغرب، وهو طعن باطل. وفيها تنقيص لملكة عظيمة من البربر. وهو باطل أيضا. وكل من ينظر التاريخ بعين الحقيقة يراها درة في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ.

الفتح العربي:

بعد قتل الكاهنة دخل حسان جبل أوراس. وخضع له البربر. فعقد لاكبر ابني الكاهنة على جبل أوراس وقومه جراوة. وجند من البربر اثني عشر ألفا لا يفارقونه في جميع مواقفه الحربية. وذلك كي يأمن ثورتهم، ويستعين بشجاعتهم.

وبعد فتح جبل أوراس عاد حسان إلى القيروان. ووجه همه إلى الإدارة والحربية. فدون الدواوين. وكتب الخراج. وضرب الجزية على من أقام على المسيحية. ثم أنشأ بتونس دارا لصناعة المراكب البحرية والآلات الحربية.

وعلى يدي حسان تم الفتح العربي حربيا وسياسيا ودينيا، فاستتب الأمن. واقبل الناس على شؤونهم. ولكن الغلطة التي غلطها معاوية بن أبي سفيان (ض) بإضافة المغرب إلى ولاية مصر ما زالت تفتك بالمغرب، وهدم ما بنته جهود الفاتحين. كان عقبة بن نافع قد وضع أساس الفتح العربي بالمغرب. وبينما هو مشتغل بتكميله اذ أضاف معاوية المغرب إلى والي مصر مسلمة بن مخلد. وكانت نتائج هذه الإضافة عزل عقبة، واستحكام العداوة بينه وبين أبي المهاجر، وصاحبه كسيلة. الأمر الذي أفضى إلى قتله. ولم يزل المغرب تابعا لمصر. فلما تمم حسان الفتح، وعمم الأمن عزله والي مصر. فارتحل إلى المشرق. واستخلف مكانه أحد عظماء الجند. ولكن لم تكن له كفاءة حسان. فاضطرب حبل الأمن. وكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد. وكادت جهود حسان تذهب هباء، لولا ان تداركها الله بمجيء موسى بن نصير.

لما حل هذا الوالي بالقيروان أخذ في إخضاع البربر من جديد. ففرق البعوث في النواحي. وافتتح طبنة من جديد. وأرسل أحد قواده بشر بن ارطاة إلى مجانة فافتتحها. وافتتح قلعة حولها. فأضيفت إليه. وسميت قلعة بشر.

بلغ موسي في غزواته بحرا جزيرة ميورقة، وبرا السوس الأدنى. قال بيروني: «**كان موسى فاتحا عظيما. أخضع قسنطينة الثائرة والمغرب الأقصى وتافيلالت ودرعة وسوس. وجند تسعة عشر ألفا من البربر.**

وأسس طنجة. وجعلها قاعدة الشمال الغربي. وجعل لها حامية ذات سبعة عشر ألفا ما بين عرب وبربر» وكان العامل عليها من قبله طارق بن زياد الليثي.

ولما ثبت الفتح بالمغرب أمر طارقا بغزو الأندلس. فتوجه إليها سنة**92** في جيشين أحدهما تحت رئاسته، نزل به الجبل المعروف باسمه إلى اليوم، والآخر تحت رئاسة طريف بن مالك النخعي، ونزل مكانا سمي به أيضا. ولما اجتازوا البحر كسر طارق المراكب كي لا يطمع في الفرار ضعفة الصبر من الجيش. وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي ضاعفت شجاعتهم وإقدامهم.

قد وضع عقبة في ولايته الأولى أساس الفتح العربي بتأسيس عاصمة المغرب. وجاء حسان فرفع البنيان وأحكم بناء الأركان. وجاء موسى فوضع السقف وحفظ هذا الصرح من عوامل الضعف، ولولا غلطات الخلفاء وجهل الأمراء بدواخل الوطن وطبائع أهله وجهل البربر بغرض الفاتحين ما بقي العرب في تشييد صرح الفتح نحو من أربعين عاما. ومع ذلك فهو فتح سريع لم يكتم مؤرخو الإفرنج تعجبهم منه.

بحث الأفرنج عن سر هذه السرعة العجيبة فوجدوها فيما كان عليه الوطن البربري من عموم الفوضى منذ أواخر العصر الروماني. وليس ذلك بصحيح. وقد قدمنا بحثنا في التعليل بالفوضى في الفصل الرابع من الباب السابع. ولو كانت الفوضى تفيد الفاتح سرعة الفتح فلم لم تفد الروم البيزنطيين بمعشار عشر ماأفادت العرب؟ وهل هذه الفوضى التي قربت

للعرب فتح المغرب موجودة بصفتها لدى الفرس أيضا وغيرهم من أهل الشام ومصر والأندلس وبقية الأوطان التي سار فيها الفتح العربي سير الشمس غير انه ليس سريع الأفول؟

لسنا ننكر ان البربر كانوا في فوضى، ولا نخضعهم بها. ولكنا لا نراها صالحة لان تكون سببا لسرعة الفتح. أم السبب في نظري فهو ان العرب لم يحملهم على غزو الأمم كسب ثروة ولا استبعاد ضعيف. وانما كانوا يريدون نشر الإسلام بصدق وإخلاص. فكانوا يعرضونه على محاربيهم أولا. فإن أجابوا صاروا مساوين للعرب في جميع الحقوق. لا سيد ولا مسود ولا غالب ولا مغلوب. وأن امتنعوا عرضوا عليهم الجزية. فان قبلوها حفظوا بها حقوقهم الذاتية وعقائدهم وعوائدهم تحت العدل الإسلامي. وهذا السبب أراه عاما في سرعة الفتح العربي لجميع الأوطان.

البربر والإسلام:

علمت سابقا أنه كان بالمغرب ثلاث ديانات: الوثنية والموسوية والمسيحية، وإن المسيحية ذات مذاهب ثلاثة متباينة: الارثذوكس شيعة الرومان والاريويين من الوندال، والدونويين من بربر الجزائر.

وإن كان لاصحاب تلك الديانات والمذاهب شيء من التعاليم الموروثة والتقاليد الجامدة فقد قضت عليها الفوضى من جهة والسلطة البيزنطية من جهة أخرى، ولم تبق هيئة دينية الا في كنائس الارثذوكس لما لهم من السلطان والصلة بالبابا.

وقد أخذ الإسلام يظهر بالمغرب بين البربر لأول ما غزاهم العرب. فقد أسلم صولات بن وزمان أحد ملوكهم على يد الخليفة الثالث. وسرحه لقومه. ولاشك أنه قد عمل لنشر الإسلام بينهم لما عاد إليهم.

وفي ولاية عقبة بن نافع الأولى التي وضع فيها أساس الفتح العربي كان الإسلام منتشرا جدا. قال ابن خلدون: «**فدخل افريقية. وانضاف اليه مسلمة البربر. فكبر جمعه.. ودخل أكثر البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين. ورسخ الدين**»[1].

وفي ولاية أبي المهاجر اسلم كسيلة من ملوكهم. وكاد الإسلام يعم المغرب أجمع في ولاية عقبة الثانية لولا إساءته لكسيلة. تلك الإساءة التي أنتجت قتله ووقف سير الفتح العربي.

ولما فتح حسان جبل أوراس أسلم أهله، واتخذ منهم جيشا إسلاميا. ولما فتح موسى بن نصير طنجة عام (88) ولى عليها طارق بن زياد. وأنزل معه آلافا من العرب والبربر. وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر القرآن وفقه الدين.

وإذا كان من البربر من قبل الإسلام عن علم واعتقاد راسخ فان جمهورهم إنما قبلوه لما رأوا من قوة الجند العربي، وأنه لا يسلم من سيوفهم الا من أسلم أو دفع الجزية. فاختاروا الإسلام لما فيه من عز. وأنفوا من الجزية. لما فيها من صغار. ولذلك كانوا أذا جاءهم جنود

---

[1] ج3 ص10.

العرب أسلموا، وإذا رجعت عنهم ارتدوا. ويروي عن ابن أبي زيدأنة قال: ارتد البربر اثنتي عشرة مرة.

ولما فتح الأندلس وثبتت قدم الإمارة العربية بالمغرب وخالط البربر العرب ثبتوا على الدين. ثم لما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله واليا على المغرب أرسل معه عشرة من التابعين يعلمون البربر الدين ولغته. فعم الإسلام البربر. و لم يقف دون قلوبهم.

وقد اختارت بقايا الرومان والروم بالمغرب البقاء على المسيحية وقبول الجزية. فترك لهم العرب حريتهم الدينية. وقال غروت: «**والباقون على المسيحية جبرهم عمر بن عبد العزيز سنة (719) على الإسلام أو الخروج من المغرب. فهاجر كثير منهم إلى أوروبا. ولكن أكثرهم أسلموا. ولم يبق بالمغرب مسيحي غير المعتصمين بشواهق الجبال. وهؤلاء بطول المدة أسلموا. وحسن إسلامهم**».

وظاهر أن المعتصمين بشواهق الجبال من البربر، والمهاجرين إلى أروبا من غيرهم. وما يظهر من كلام غروت من أن الإسلام عم جميع أهل المغرب على عهد عمر بن عبد العزيز صحيح تؤيده أقوال مؤرخي العرب والإفرنج. وما صرح به من نقض ذلك الخليفة لحكم الجزية غير صحيح: اذ لم يذكره أحد من مؤرخي العرب. بل كلهم مجمعون على أنه كان ذا عدل ووقوف عند أحكام الشريعة الإسلامية. فلا يعقل أن يخالفها في حكم من أوضح أحكامها، فلا يقبل الجزية من مسيحي. بل انه يقبلها

ويحترم أهلها. وقد سمى العرب أهل الجزية ذميين، نسبة إلى الذمة التي هي عهد يستوجب مضيعه الذم. وهم معرفون قبل الإسلام وبعده بالمحافظة على العهود. والظاهر ان هجرة المسيحيين اذ ذاك إنما كانت منهم اختيارا. رأوا انتشار الإسلام ورسوخه بهذا الوطن، ففروا إلى حيث يأمنون على ذريتهم سريان الإسلام إليهم.

كان البربر أولا يظنون ان هذا الدين آلة بيد العرب يخضعون به الأمم لسلطانهم، ويفرض طاعة العرب على من سواهم. فكانوا إذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا ودينيا. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز فقهوه حق الفقه، وأدركوا أنه أداة سعادة للبشر عامة، وليس من تلازم بين العرب والإسلام. فأذعنوا له إذعانا أورثوه أعقابهم إلى الأبد. وصاروا إذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا فقط.

إن ظهور الإسلام بالغرب لأول غزو العرب له، وانتشاره من بعد، وتمكنه من قلوب البربر في أمد قليل ـــ لشيء عجاب في تاريخ البربر. فقد رأيناهم قبل متساهلين في المعتقد لا يصعب عليهم الانتقال من وثنية لأخرى أو ديانة سماوية لغيرها. واليوم رأيناهم ثابتين على الإسلام ثبوتا لا يضعفه مرور المئات من الأعوام.

يسند بيروني سرعة إقبال البربر على الإسلام إلى ثلاثة أسباب:

1- تساهل البربر في المعتقد.

2- بساطة العقيدة الإسلامية.

3- انتشار الفوضى إلى درجة لم تبق معها فكرة قارة تعارض فكرة الإسلام.

ولعل هذه الأسباب ترجع إلى الاعتذار عن انهزام المسيحية أمام الإسلام. والسبب الأول حجة للإسلام حيث أن البربر المعروفين بالتساهل الديني ثبتوا على هذا الدين القرون العديدة، رغم عواصف الجهل وزوابع الفتن الكاثولبكية والبروتستانية. والسبب الثاني صحيح في نفسه. ولكن لو كان عدم إقبال البربر على المسيحية لكونها معقدة العقيدة لكانوا يفهمونها بطول المدة. فقد عاشت بينهم قريبا من سبعة قرون لا مزاحم لها. والسبب الثالث اعتراف بضعف المسيحية بهذا الوطن، وإنها على طول أمدها لم توجد به فكرة قارة.

أما غروت فقد علل سرعة إسلام البربر بما يرجع إلى ثلاثة أشياء:

1- تساهل البربر في المعتقد. وقد علمت أنه لا ينتج ثباتهم على الإسلام.

2- امتياز الإسلام على غيره بأشياء عددها. وقد قارب في هذا.

3- اشتماله على حقوق فيها منافع للبربر. وهذا إنما يصلح أيضا بالنظر لإسلامهم أولا.

والسبب الوحيد عندي لإقبال البربر على الإسلام بسهولة قربهم من الفطرة وتعشقهم للحرية وحاجتهم إلى الرقي الاجتماعي. والإسلام دين الفطرة دين الحرية الصادقة دين الرقي الشريف.

الفتح العربي والحضارات القديمة:

حضارة أي امة فيها من عقائد وعوائد وأخلاق ومعارف إنما تسري لأمة أخرى وتثبت فيها على نسبة سريان لغتها بين أفراد تلك الأمة الأخرى وثبوتها في أجيالها، لا على نسبة سلطاتهم وقوتها الحربية ونفوذها السياسي. وفيما تقدم من حياة الحضارة القرطاجنية بلغتها إلى الفتح العربي، وذهاب حضارة الرومان بأثر ذهاب سلطانهم لعدم انتشار لغتهم ـ دليل كاف على صحة نظرنا هذا.

ولما جاء العرب إلى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايرا لجنودهم. فما فتحت قطعة منه حربيا الا انتشرت بها لغتهم. وكان لذيوع حضارتهم بين البربر نفس السرعة التي كانت لفتوحهم. قال اغسال: «**وقد انتشرت العربية بين البربر بسرعة**» ولذلك قضوا أيضا بسرعة على حضارات الأمم السابقة. وحلت حضارتهم من البربر مكانا لم يكن حل من قبل ولا يحل من بعد.

قال اغسال: «**هذا القطر الذي تقاتل عليه الشرق والغرب، والذي ترك به كل طابعه، والذي اختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية اللطينية ـ أصبح من هذا الحين (يعني الفتح العربي) كله شرقيا. وانقضى بذلك عصر الاتحاد اللطيني الذي كان حول البحر الأبيض**»[1].

[1] الجزائر في القديم ص143.

هذه الشهادة من أغسال الاختصاصي في التاريخ القديم ندفع بها وجوه المتفيهقين المتطفلين على التاريخ الزاعمين ان الجزائر وبقية افريقية الشمالية وطن غربي لا صلة له بالشرق أصلا. وهاك شهادة أخرى من هذا المؤرخ عن علم وبحث. قال أثر ما تقدم: «**البربر كانوا يثورون على العرب أما أنفة من أداء الخراج وأما طمعا في الاستقلال. وغرضهم إخراج العرب من وطنهم. وقد استطاعوا ان يؤسسوا دويلات أو دولا من طرابلس إلى الأندلس. ومع ذلك لم يفكروا ولا يوما واحدا في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللطينية والدين المسيحي. فبقى مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية. وملوكهم شادوا قصورهم على الفن العربي. وصارت بعض القبائل البربرية تلفق انسابا تتصل بها من العرب. ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة وتذاكير للقوة الرومية**».

هكذا كان تأثير العرب على البربر بعيدة الأثر حتى انتهى إلى الأنساب. ولذلك قال بيروني في وجوه تمييز العرب من البربر ــ وصدق فيما قال: «**من انتسب إلى البربر أو تكلم بلغتهم فلا شك أنه بربري. ومن انتسب إلى العرب أو تكلم بلغتهم فلا يجزم بأنه عربي**». وهذا التأثير السريع العميق الخالد لا تجد له نظيرا في تاريخ البربر.

قال بيروني: «**احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم. ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة، ومتحدون في الأصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع**». ومراده أن الفينيقيين أثروا في البربر. وبقي تأثيرهم ذلك إلى أن جاء أخوانهم العرب فلحقوه. وهذا غير صحيح على إطلاقه. فانا مع اعترافنا بمحافظة البربر على ما أخذوه عن قرطاجنة لا نعتقد أن البربر صاروا فينيقيين: ليس بينهم وبين العرب فوارق شديدة في مناحي حياتهم. فهم ـ وإن أخذوا حظا وافرا من حياة البونيقيين ـ قد صبغوه بالصبغة البربرية، وابتعدوا به عن أصله. وهذا ما لا ينكره بروني ولا غيره. واذن فأن الفينيقيين ليست لهم يد فيما كان للعرب من تأثير على البربر. اللهم إلا ما كان من قبل اللغة فلا ننكره بل نقول كما قال أغسال: إن بقاء الفينيقية بألسنة البربر سهل عليهم تعلم العربية. ولا نكبر هذه المساعدة أيضا: فإنه لا يعقل أن تبقى البونيقية بألسنة البربر تلك القرون من غير ابتعاد عن أصلها.

والوجه عندي أن العرب هم الذين كونوا أسباب هذا الانقلاب السريع الغريب من غير مساعدة خارجية. ذلك أنهم لم يأتوا إلى هذا الوطن لغرض سياسي أو تجاري أو استعماري. وإنما أتوا لنشر مبدأ فيه سعادة البشر في الحياتين. وأيدوا صدقهم في قصدهم بقسطهم. فأقبل البربر على ذلك المبدأ وهو الإسلام. و لم ينفروا أولا من العرب لعدلهم. ثم

لما رأوا آثار الجور أخذت تبدو منهم قلبوا لهم ظهر المجن. وبقوا متمسكين بحضاراتهم وديانتهم. وهذا الوجه تجده أيضا في كل الأوطان التي كان للعرب بها سلطان.

وقبل أن نختم هذا الفصل ننبه القارئ إلى أن العرب لم يهدموا في فتحهم المغرب غير صروح الخرافات ومعاقل الفوضى. أما ما كان للفاتحين قبلهم من أعمال العمران فلم يخربوا منه شيئا. أما أعمال الرومان فقد قال عنها بيروني: «**ولم يتحد البربر والوندال الا في تخريب افريقية والقضاء على عمرانها الذي لم يبق منه الا آثار تشهد بعظمته**». وأما أعمال الوندال والروم فقد قال في شأنها أيضا: «**وقد ذهبت أعمال الوندال والبيزنطيين من نفسها لعدم إتقانها. ولم يكن للعرب يد في هدمها**».

ولم نعلم من تخريب للعرب إلا ما كان من تخريب حسان لقرطاجنة. ولكن لم يخربها على ساكنيها من صبية ونساء وشيوخ. وإنما خربها بعدما خرج أهلها منها لئلا يعودوا للتحصن بها. ولكن أين هذا من تخريب الرومان لها؟ وأين هذا مما يفعله الأوروبيون اليوم بالأمم الضعيفة؟ لم أدر كيف يغتر بعض الجزائريين بدعاية الملوثين لسمعة العرب بمثل هذه الاختلافات وهم يقرأون حقائق عن تخريب أولئك المعمرين ووحشية أولئك المحتكرين للمدنية؟.

العرب والبربر بعد الفتح:

أصبح العرب بعد الإسلام أعظم دول العالم فتوحا. ولكنهم يمتازون عن الفاتحين سواهم ممن تقدم أو تأخر بأنهم لم يفتحوا وطنا لامتصاص خيراته ولا لسلب حري أهله. بل كان غرضهم لوحيد نشر الإسلام الذي رأوا فيه سعادتهم. فأحبوا أن يعمموا نشره ما استطاعوا كي تعم السعادة. ولميزتهم هاته عن بقية الأمم الفاتحة كان فتحهم ممتازا عن سائر الفتوحات.

لما فتح العرب المغرب اختلطوا بالبربر وامتزجوا بعضهم ببعض من غير اندماج. فتصاهروا وتساكنوا في المدن والضواحي. ولم يكن للعرب تفوق على البربر في جميع الحقوق، إلا ما كان من الولاية العامة فإنها كانت بأيدي العرب لخبرتهم بالشؤون الدولية. ولم تسند للبربر لعراقتهم في الفوضى وحدوث عهدهم بالنظام. ومع ذلك فإن العرب قد أقروا بعض رؤساء البربر على رئاستهم.

ولقد ساس العرب البربر سياسة الإخاء والحرية والمساواة حقا. فتركوا لهم أراضيهم ولم يثقلوا كاهلهم بالضرائب. حتى أن مالية ولاية المغرب كانت غير كافية، وتمدها ولاية مصر بمائة ألف دينار كل عام. ولما بويع المنصور العباسي أرسل إلى عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وكان متغلبا على المغرب، يدعوه إلى الطاعة. فلباه عبد الرحمن. وبعث إليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل. واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب

اليوم بلاد إسلامية لا سبي فيها. ولعلك لم تنس أن ايطاليا كانت تأخذ من المغرب مؤونة ثمانية أشهر. فقابل بين السلطتين: الرومانية والعربية.

وقد أدرك البربر فضل السلطة العربية. فأخذوا يخدمون دولتهم بإخلاص. ودخلوا الجندية لأول الفتح على عهد حسان. وكانت لهم اليد الطولى في فتح الأندلس على عهد موسى بن نصير. وظلوا مغتبطين بالسياسة العربية إلى أن أخذ الجور يبدو من بعض الولاة. فذكروا هواهم الدفين. وشرعوا يعملون لاستقلالهم بوطنهم وطرد النفوذ العربي منه مع المحافظة على ما أخذوه عن العرب من دين ولغة وحضارة.

في سنة (**102**) كان الوالي على المغرب يزيد بن أبي مسلم. فأراد أن يأخذ من البربر الجزية وهم مسلمون. فبادروا بقتله لشهر من ولايته. ونصبوا مكانه أحد الولاة السابقين. قيل محمد بن يزيد، وقيل إسماعيل بن عبيد الله. وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر. فقبل عذرهم وأقر الأمير الذي نصبوه.

وفي سنة (**114**) ولي على المغرب عبيد الله بن الحبحاب. وتوسع في الفتوحات برا وبحرا. ونصب عماله في الجهات. فكان بعضهم يجور على البربر. فثار أهل المغرب الأقصى على عاملهم بطنجة. وقتلوه من غير أن يشتكوا به إلى أميره. فرأى عبيد الله بن الحبحاب أن هذا ثورة على الدولة نفسها. فأرسل إليهم الجنود. وتقاتلوا بأحواز طنجة. ثم تحاجزوا. واجتمع البربر من بعد على رئيسهم خالد بن حميد الزناتي. فأرسل إليه ابن الحبحاب الجنود بقيادة خالد ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع

الفهري. والتقى الجمعان على وادي شلف. فقتل خالد وجماعة من وجوه العرب. وانهزم الجيش العربي. وسميت الوقعة وقعة الإشراف.

بلغ الخبر الخليفة هشام بن عبد الملك. فاستضعف بن الحبحاب وعزله. وأرسل إلى المغرب كلثوم بن عياض القشيري. فدخله في سبعين ألف مقاتلا. وكان بتلمسان حبيب بن أبي عبيدة أبو خالد المقتول موافقا للبربر. فلحق به كلثوم. وزحف الجميع لقتال البربر. فكانت الغلبة لهم أيضا. وقتل كلثوم وحبيب. وتفرق جيشهما أيادي سبا.

ولما بلغ خبر هذه الخيبة إلى هشام وجه إلى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي. فقاتل الثوار وانتصر عليهم. وسكن المغرب أيامه، سكونا موقتا.

وبينما البربر يعملون لاسترداد استقلالهم إذ بالعرب يختلفون ويقاتلون فيما بينهم على مرأى ومسمع من البربر. وابتدأ دور هذه الرواية حبيب وكلثوم. فإن كلثوم لما نزل القيروان أساء إلى أهلها. فشكوه إلى حبيب وهو بتلمسان. فكتب إليه حبيب ينهاه ويتوعده. فأصرها في نفسه. وذهب لقتال البربر مارا بتلمسان. فابتدأ بقتال حبيب. فتقاتلا. ثم اصطلحا واتفقا جميعا على حرب الثوار من البربر. وبعد استشهاد حبيب فر ولده عبد الرحمن إلى الأندلس.

وفي سنة **(126)** عاد عبد الرحمن بن حبيب إلى المغرب. ونزل بتونس. ودعا أهلها إلى طاعته. فلبوه. وبلغ ذلك حنظلة. فتعفف عن اراقة الدماء. وتحرج من تفريق الكلمة. فأرسل طائفة من وجوه الجند إلى

عبد الرحمن يدعونه إلى الطاعة. فأوثقهم في الحديد. وذهب بهم ليفتح القيروان. وأرسل إلى أوليائهم يخذ ٠ اله، ويهددهم بقتل من تحت يده أن هم حاربوه. فأشفقوا على أشرافهم وأمسكوا عن القتال. ولما رأى حنظلة عبد الرحمن وعدم مبالاته بالوحدة العربية ترك له القيروان. وعاد إلى المشرق سنة (**127**).

ضبط عبد الرحمان المغرب. وقاتل ثوار البربر وانتصر عليهم. وزحف سنة (**135**) إلى جموع من البربر بنواحي تلمسان. فظفر بهم. وغزا صقلية وسردانيا. وكتب الجزية على أهلها. ولكن انقسام العرب ما زال يفتك بهم. فقد ثار عليه أخوه الياس بن حبيب. وقتله سنة (**137**) واستولى على المغرب مكانه. ونجا إلى تونس ولد لعبد الرحمن اسمه حبيب. فثار على عمه. وقتله سنة (**138**). وكان عبد الوارث بن حبيب مظاهرا لأخيه الياس. فلما قتله حبيب طلب عمه عبد الوارث هذا. ففر منه إلى ورفجومة من أفخاذ نفزاوة إحدى بطون لواتة. واستجار بهم. فأجاروه. وذهب حبيب لقتالهم. فهزموه. واحتلوا القيروان. ثم قتلوه سنة (**140**).

واستولى على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي. وسار في العرب سيرة العسف والظلم. فافترقوا في النواحي. وشاع خبرهم في الآفاق. وكان بنواحي طرابلس أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح من وجوه العرب. فقام على وفجومة منكرا لعسفها. وانتصر عليها. وملك القيروان. وأصبح المغرب خارجا عن قبضة الخليفة بالمشرق.

وفي سنة (144) وجه المنصور العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي واليا على المغرب. فقاتل أبا الخطاب. وقتله. وملك القيروان. ولكن ثورات البربر لم تنقطع. وأشدها ماكانت أيام عمر بن حفص من آل أبي صفرة. فقد ذهب هذا الوالي لإدارة سور بطبنة قاعدة الزاب. فحاصره البربر بها في جموع لاتحصى. وكان من رؤسائهم أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، والمسور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف، ولم يتخلص عمر بن حفص من هذا الحصار الا بالدهاء. فاستمال بعض الرؤساء بالمال. وأعمل الحيلة في تفريق كلمتهم. فانجلوا عنه. وذهب إلى القيروان. فحاصره البربر بها أيضا. وقتل في مدافعتهم.توصل البربر بثوراتهم المتكررة إلى إضعاف السلطة العربية. وأعانهم على ذلك ـ من غير قصد ـ آل عقبة بن نافع. واستقل البربر بجهات من المغرب. ولم يبق للعرب منه الا ما يقرب من نصفه

ولاة المغرب من قبل الخلفاء:

فتح العرب المغرب ثم الأندلس. فكان ما فتح من المغرب كله ولاية واحدة، والأندلس تابعة لها. وقاعدة المغرب هي القيروان. ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء، ويولون العمال في النواحي، ينزلون مدنا معتبرة هي القواعد لتلك النواحي.

وكانت طبنة هي قاعدة الزاب من الوطن الجزائري. وهي مدينة قديمة من العصر الروماني. ذكر البكري: ان لها خمسة أبواب.

قال: «**وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح، يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة. بناه عمر بن حفص. ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب... وليس من القيروان إلى سلجماسة مدينة أكبر منها**»[1]. وقد ذهب عمرانها من بعد. وأصبحت ليس لها من قيمة ولا أهمية غير أهميتها التاريخية. وكان لها في أوائل العصر الإسلامي شأن عظيم. وتدرس بها العلوم شأن المدن الكبرى. وكان منها علماء أجلة.

كان المغرب والأندلس ولاية واحدة إلى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي إلى الأندلس سنة (**138**) واستولى عليها. وجدد بها ملك بني أمية. وأورثها عقبه من بعده. وكانت تلك الدولة غرة في جبين تاريخ العرب. وفي سنة (**140**) تأسست سجلماسة. وكانت بها دولة بني مدرار. وفي سنة (**144**) تأسست تيهرت. وكانت بها دولة الرستميين. وفي سنة (**172**) دخل إدريس الأكبر المغرب الأقصى. وأسس بها دولة الادارسة.

كانت هذه الدول جمعاء مستقلة عن ولاة المغرب وغير مرتبطة بدار الخلافة بالمشرق. فانحصرت ولاية بعد في الجهات الشرقية للجزائر وفي عمالة تونس وبعض تراب طرابلس. تداول عليها ولاة من طرف الخلفاء.

---

[1] المغرب ص**51**.

وكانت لايهتم غير وراثية إلى أن تولى ابراهيم ابن الأغلب سنة(**184**). فأصبحت ولاية وراثية مستقلة استقلالا داخليا.

وهاك أسماء ولاة المغرب من لدن بداية الغزو إلى حين استقلال بني الأغلب:

الأمير	تاريخ الولاية الهجري	الخليفة الميلادي	التعليق
عبد الله بن سعد	27	647 عثمان	
معاوية بن حديج	45	665 معاوية	1
عقبة بن نافع	50	669 معاوية	2
ابو المهاجر	55	675 معاوية	
عقبة ثانيا	62	681 يزيد بن معوية	
زهير بن قيس	67	688 عبد الملك	
حسان	68	697 عبد الملك	3
موسى بن نصير	87	705 الوليد بن عبد الملك	4
محمد بن يزيد	97	715 سليمان بن عبد الملك	
إسماعيل	100	718 عمر بن عبد العزيز	
يزيد ابن أبي مسلم	102	720 يزيد بن عبد الملك	
بشر بن صفوان	103	721 يزيد بن عبد الملك	
عبيدة السلمي	110	728 هشام بن عبد الملك	5
ابن الحبحاب	114	734 هشام بن عبد الملك	

(1) ذكر الزاني: ان معوية بن حديج غزا افريقية ثلاث مرات: إحداهن سنة 34 وثانيتهن سنة 35 والثالثة ما في الأصل. وحكى صاحب المؤنس ذلك أيضا مع اختلاف بينهما في تاريخ الغزو (2) ذكر الزياني: بين معاوية وعقبة واليين، رويفع بن ثابت الأنصاري، وليها سنة 47 وفي المؤنس: انه لم يكن واليا وانما كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس ومنها غزا افريقية سنة 47، وعقبة بن عامر الجهني، ولي افريقية سنة 49 وذكر أن عقبة بن نافع وليها سنة 51 وقد جاء في ابن خلدون (10:3) ذكر عقبة بن عامر، ثم أعاده (135:3) بلفظ عقبة بن نافع، وحديثه عنهما متحد (3) أخذنا التاريخ الميلادي لهؤلاء الولاة من تاريخ مرسيي. والسنة التي ذكرها الولاية حسان لا توافق حتى سنة 74 هجرية. وهي التي عاد فيها حسان لحرب الكاهنة لا انه ولي فيها. على أن ما أثبتناه من تواريخ الولايات ليس كله متفقا عليه، وانما اقتصرنا على بعض الروايات (4) فتح الأندلس. وكان غرضه ان يعود إلى المشرق من أوروبا ويدخل الشام من ناحية القسطنطينية. فلم يأذن له الخليفة لصعوبة ذلك على الجند (5) ذكر مرسيي بينه وبين ابن الحبحاب عقبة بن قدامة سنة 732 وفي المؤنس: إن عبيدة بن عبد الرحمن استخلفه لما قفل إلى المشرق. فليس بوال.

الأمير	تاريخ الولاية الهجري	الخليفة الميلادي	التعليق
كلثوم بن عياض	123	741 هشام	
حنظلة بن صفوان	124	742 هشام	
عبد الرحمن بن حبيب	127	744	1
الياس بن حبيب	137	755 756	
حبيب بن عبد الرحمن	138		
عبد الملك بن أبي الجعد	140		
أبو الخطاب	141	761 المنصور	
محمد بن الاشعث	144	765 المنصور	
الأغلب بن سالم	148	768 المنصور	2 3
عمر بن حفص	151	772 المنصور	
يزيد بن حاتم	155	787	
داوود بن يزيد	171	788 هرون الرشيد	
روح بن حاتم	171	791 هرون الرشيد	
النصر بن حبيب	174	793 هرون الرشيد	
الفضل بن روح	177	795 هرون الرشيد	
هرثمة بن أعين	179	797 هرون الرشيد	
محمد بن مقاتل	181	800 هرون الرشيد	4
ابراهيم بن الأغلب	184		

(1) هذا الوالي أول متغلب على المغرب وفي أيامه سنة 132 سقط ملك بني أمية بالمشرق، واجتاز عبد الرحمن منهم بالقيروان ذاهبا إلى الأندلس حيث أسس دولة عربية مستقلة. وبقيت ولاية المغرب بيد المتغلبين إلى أن جاء محمد بن الأشعث فأعادها إلى نظر الخليفة الشرقي من بني العباس بن عبد المطلب (2) كان بطبنة عاملا على الزاب لمحمد بن الأشعث. وهو أبوا ابراهيم مؤسس الدولة الأغلبية (3) هو من ولد قبيصة أخي المهلب ابن أبي صفرة. أسرتهم شهيرة بالجود والشجاعة. ولي المغرب منهم ستة أحدهم داوود لم يكن واليا من قبل الخليفة. وانما ولي بعد أبيه إلى أن جاء عمه روح (4) بولايته أصبح المغرب مستقلا عن دار الخلافة تحت دويلات لاصلة لها بالخلافة غير دولته فإنها تحت الخلافة العباسية اسما فقط.

تم الجزء الأول والحمد لله أولا وآخرا

الباب الثاني

في الدولة الرستمية

تمهيد:

كان المسلمون على غاية من الاتحاد واجتماع الكلمة. يتلون من كتاب الله ويروون من أحاديث رسوله ما يقوي ميلهم إلى الاتفاق ونفورهم من دواعي الشقاق. فلقد بويع أبو بكر (ض) بالخلافة. ولم يرض بيعته كثير من الصحابة. ولكنهم آثروا اجتماع الكلمة وحافظوا على الجامعة الإسلامية. فلم يعترضوا بيعته بالفعل وسلموا لحكم الجمهور.

وعهد أبوا بكر (ض) بالخلافة لعمر (ض) فنفذوا كذلك عهده. ثم بويع عثمان (ض) واتسعت على عهده الفتوحات. ففنيت الطبقة الأولى من المسلمين استشهادا وتشتتا في الأوطان. وخلفتها طبقة من أغمار العرب ومسلمة الفتح. وكان فيهم من تدثر بالإسلام فرارا من ذل الجزية وطلبا للانتقام من أهله بالدسائس وكان من أمر هذه الطبقة ان تداخل جمهور منها في سياسة هذا الخليفة وأسسوا جمعيات بمصر والكوفة والبصره لبث دعاية ضده. وانتهى الأمر إلى حصاره ثم قتله رضي الله عنه وغضب عن قتلته.

نتج عن هذا الحادث الجليل خطوب جسام لم تزل أداؤها تفتك بالجامعة الإسلامية إلى اليوم. فمن هذا الحادث حييت في العرب العصبية القومية وحلت محل العصبية الدينية، وظهرت مذاهب الخوارج والشيعة، وانقضى نظام الخلافة وحل محلها نظام الحكومات الوراثية. وعلى هذا النظام تأسست دولة بني أمية ثم بني العباس وهلم جرا.

تأسست دولة بني أمية وكانت خطتها توسيع نطاق الممالك العربية من جهة والمحافظة على الجامعة الإسلامية من جهة أخرى. فغزت وفتحت وحاربت الثوار السياسيين والدينيين ولم تزل على ذلك حتى قضى عليها بنو العباس.

فتح بنو أمية فيما فتحوا المغرب ووحدوه دينيا وسياسيا. ولكن كان بعيدا عن الشام مركز حكومتهم وأهله البربر ألفوه حياة الانقسام والفوضى منذ قرون. ولم يخف عليهم تطاحن العرب بالمشرق. وبلغهم ما به من مذاهب دينية وأحزاب سياسية. فقاموا على السلطة العربية. وسعوا في تمزيق تلك الوحدة وزادهم إقداما ما كان من تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب واستبدادهم به وتواثبهم على إمارته. وشغلت عنهم الدولة الأموية. فقضوا على ذلك التوحيد جنينا. وعمت الفوضى وطن البربر من مبتداه إلى منتهاه. ولم يبق للعرب به أمر ولا نهي.

ولما تم لبني العباس تأسس دولتهم بالمشرق التفتوا إلى المغرب. فجهزوا له الجيوش. وكانت حروب أسفرت عن استرجاع قسم من

المغرب للدولة العباسية واستقلال قسم منه تحت رؤساء متعددين من الخوارج.

الخوارج:

بعد مقتل عثمان (ض) كان الناس فرقا. فرقة وقفت موقف الحياد. وفرقة لم ترض خلافة علي (ض) وأخذت تطالب بدم عثمان، وفرقة بايعت عليا بعضها يرى أنه أحق بالخلافة. وأكثرها من الثوار على عثمان لم يريدوا من مبايعته لعلي الا الاحتماء به من العثمانيين اذ كانوا يظنون انه يرضى عن صنيعهم ويقرب مترلتهم. ولكنهم تبينوا من بعد انه غير راض عنهم وسمعوا منه مرارا التصريح بلعن قتلة عثمان. فأوجسوا خيفة من اصطلاحه مع العثمانيين فكانوا هم السبب في وقعة الجمل سنة 36 ثم كانوا هم الحاملين لعلي على قبول التحكيم الذي دعا اليه معاوية سنة 37 وبعد إمضائه على عهد التحكيم طلب اليه فريق من العراقيين نقض العهد وإشهار الحرب فلم يستطع مجاراتهم في هذا التلاعب. فانعزلوا عنه. وأعلنوا بالخروج عن طاعته. وغادروا الكوفة إلى النهروان. فأرسل إليهم عبد الله ابن العباس ليستصلحهم بالحجة والمفاهمة. ثم لحق هو نفسه. ونتج عن هذه السياسة الحكيمة ان عاد فريق منهم إلى الطاعة وأصر آخرون على الخلاف. فأعرض عنهم. حتى بلغه أنهم قتلوا صحابيا وزوجه. فأرسل إليهم بالكف عن الفساد .فقتلوا الرسول. وهنالك توجه إليهم بجيوشه

وخاطبهم خطابا بين فيه صوابه وخطأهم. فلم ينفعهم خطابه. وكانت الحرب. فأتى القتل على أهل النهروان. ولم ينج منهم الا قليل تفرقوا في الجهات.

هؤلاء هم المسمون بالخوارج لخروجهم عن الإمام علي. واصل معنى الخوارج الطوائف الخارجة عن طاعة أمامها. وخصه المتكلمون والمؤرخون بالخارجين عن علي ومن والاهم ورضي سيرتهم. فصار علما لأصحاب فكرة خاصة. وليس مرادا به مدح أو قدح اذ لايعقل ذم طائفة ـ أي كانت ـ لعملها بمبدأ استصوبته. وانما ينظر في مبدأها وما فيه من مقبول أو مردود.

كان شعار الخوارج في الثورة على علي «**لاحكم الا الله**» وهو شعار لاخلاف في مدلوله الحقيقي بين المسلمين. وأصله قوله تعإلى «**إن الحكم إلا لله**». وانما انفرد الخوارج بهذا الشعار لكونهم انه حكم الرجال بدين الله. وعلي أجل من ان تعلق به هذه الوصمة. وهم يلقبون أنفسهم الشراة جمع شار بمعنى بائع. يريدون أنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله أخذا من قوله تعإلى: «**ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله**».

لم تمت فكرة الخوارج بالنهروان شان الأفكار لاتبلى بلاء الأجسام ولا يقضي عليها سنان ولا حسام. بل ظهرت من بعد. وكانت لأهلها مع خصومهم حروب شهيرة ومعارك مذكورة مع الأمويين والعباسيين.

وكان الخوارج على رأي واحد لا يختلفون الا في اليسير من الفروع حتى جاء أحد موالي بني هاشم إلى نافع بن الأزرق فقال له: ان من خالفنا مشركون وأطفالهم في النار وقتلهم جائز، بدليل قوله تعالى: «**ولا يلدوا الا فاجرا كفارا**» فأخذ نافع بقوله. وجعل يبدي آراء في تكفير المسلمين مشطة. فأنكر عليه نجدة بن عامر في طائفة معه. وكانوا بالأهواز. فارتحل نجدة بإتباعه إلى اليمامة. ووقعت بينه وبين نافع مراسلات ومناظرات لم تزد عود الخلاف الا صلابة. وكان بالبصرة أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله ابن أباض (**بفتح الهمزة وكسرها**) المري في جمع من الخوارج. فكاتبهم نافع يدعوهم إلى قتال المخالفين. فقال هيصم لابن أباض: «**ان نافعا غلا فكفر**». وإنك قصرت فكفرت اذ زعمت أن من خالفنا غير مشرك وإنما هم كفار النعم. وإن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حل طلق. قال المبرد في كامله «**والصفرية والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن أباض**».

ومن تلك المقالات افترق الخوارج إلى مذاهب أشهرها: الازارقة أصحاب نافع بن الأزرق. يقولون بالبراءة والاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة. والنجدية أصحاب نجدة بن عامر المنكر على نافع تلك الآراء. والصفرية قال المبرد: «**قال قوم سموا صفرية لأنهم أصحاب ابن صفار. وقال قوم إنما سموا بصفرة علتهم**». والاباضية أصحاب عبد الله بن أباض. قال ابن خلدون: «**والصفرية موافقون للاباضية الا في القعدة**

فان الاباضية أشد على القعدة منهم» وهم وان اختلفوا في معملة من خالفهم ـ متفقون

على أن أعداءهم كأعداء رسول الله (**صلعم**)! قال المبرد: وقول ابن أباض أقرب الأقاويل إلى السنة من أقاويل الضلال، يريد الخوارج.

هذا ما أردنا أن نقتصر عليه من حديث الخوارج الطويل العريض. وغرضنا أن يتصور القارئ بوجه إجمالي نشأتهم وقوتهم وأصولا من آرائهم. وقد شهد الكتاب للاباضية بأنهم أعدل الخوارج.

الخوارج بالمغرب:

في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب ظهرت أول فتنة بالمغرب. فاجتمعت جموعهم برئاسة ميسرة المطغري. وقصدوا طنجة ففتوحها وقتلوا عاملها. وذلك سنة **122** وبايعوا ميسرة بالخلافة. ثم قتل البربر خليفتهم ميسرة. وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي. وتوالت عدة وقائع بين الخوارج وولاة القيروان. انتصر في جميعها البربر. فازدادوا على الولاة جراءة. وازدادت الخارجية انتشارا.

ظهرت الخارجية أولا حوالي طنجة البعيدة عن القيروان في حال غيبة الجيش العربي بصقلية تحت رئاسة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع. وأخذت تنتشر في القبائل حتى بلغت طرابلس. وأصبح بيد أهله البربر الذين لم يتمرنوا بعد على النظام. فاضطربت الأحوال.

عرف البربر من مذاهب الخارجية الصفرية والاباضية. وكانت الأولى منتشرة في الجهات الغربية والثانية غالبة على النواحي الشرقية. وكان أظهر القبائل في الأخذ بالخارجية والدفاع عنها زناتة وهوارة في قبائل دونها كثرة وغناء. وكان موطن الخارجية الصحراء والهضاب. وابتعدت كلما شرقت عن السواحل الجزائرية. فلم تدخل موطن كتامة ودخلت أطراف صنهاجة و لم تطل فيهم.

ولما تغلب آل عقبة على المغرب ووليه منهم حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة ازداد حبل الأمن بالمغرب اضطرابا. فان عبد الوارث بن حبيب ثار على ابن أخيه ولحق بورفجومة. ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس. وكان كاهنا. فأجاره واجتمعت اليه نفزاوة. وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا على رأي الاباضية. وخرج حبيب من القيروان لقتالهم. فهزموه إلى قابس. واستولوا على القيروان واستهانوا مساجدها. ثم أخرجوا حبيبا عن قابس فلحق بأوراس. وأجاره أهله. وجاء عاصم لقتالهم. فهزموه. ثم قام بأمر ورفجومة والقيروان من بعد عاصم عبد الملك بن أبي الجعد. فقاتل حبيبا حتى قتله. واستولى على القيروان سنة **140** وقتل من بها من العرب وربط الدواب بالمسجد.

وكان أبو الخطاب بن السمح الاباضي بطرابلس بين بربرها من هوارة وزناته. فبلغته مناكر ورفجومة. فقام منكرا عليها. وقصد القيروان بجموعه. فقاتل ورفجومة ونفزاوة. وقتل عبد الملك. ثم بلغه ان المنصور

العباسي جهز جيشا لحرب خوارج المغرب. فعاد إلى طرابلس لقطع مدد الخليفة عن افريقية. وترك بالقيروان عبد الرحمن ابن رستم. ولكن لم تزل افريقية في اضطراب حتى قدم محمد ابن الأشعث الخزاعي سنة **144**.

ثم انتقضت مغيلة ويفرن بنواحي تلمسان. وقدموا على أنفسهم أباقرة اليفريني وقيل المغيلي. وبايعوه بالخلافة سنة **148** وزحف اليه عامل طبنة الأغلب بن سالم. ففر أمامه، ثم زحف الخوارج اباضية وصفرية لحصار عمر بن حفص الملقب هزارمرد بطبنة. وفيهم أبو قرة في أربعين ألفا من الصفرية. وعبد الرحمن بن رستم قال ابن خلدون في موضع: في خمسة عشر ألفا، وفي آخر ستة آلاف. والمسمور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية. وجرير بن مسعود المديوني في جمع من قومه. وعبد الملك الصنهاجي في الفين من الصفرية. ولم يكن لعمر قبل بهذه الجموع. فبذل لأصحاب أبي قرة مالا فانصرفوا. واضطر أبو قرة للحاق بهم ونجا عمر بدهائه من هذا الحصار.

وفي أيام عمر بطبنة وغيبته عن القيروان قدم أبو حاتم يعقوب بن حبيب المغيلي لحصار القيروان. وقد بايعته اباضية طرابلس بالخلافة فخرج عمر من حصار إلى حصار. وأنجده المنصور بيزيد بن حاتم المهلبي. ولكن قتل قبل وصول يزيد آخر سنة **154**. وتوجه أبو حاتم للقاء يزيد بطرابلس. فقتل هنالك يوم **27 ربيع الأول سنة 155 (7مارس772م)**.

وفي سنة 57 ثارت ورفجومة. فحاربها يزيد بن حاتم. وانتصر عليها. ثم في سنة 161 ثارت نفزاوة وهي اباضية. وأميرها صالح ابن نصير. فسرح إليهم داود بن يزيد عشرة آلاف من جنده. فهزموهم.

هذا وحروب الخوارج بالمغرب كثيرة. وذكروا أنها بلغت منذ حصار طبنة خمسا وسبعين وثلاثمائة حرب. وذلك يوضح قوة الخارجية بالمغرب وسعة انتشارها وعدم استسلامها وصعوبة قيادها.

وليس منشأ تلك الحروب اختلاف العقيدة بل منشؤها ما كان عليه البربر من خلق الفوضى وكراهية السلطة المحلية كيفما كان عدلها فليست حروبهم دينية بل ولا سياسية. أما كونها غير سياسية فان البربر لم ينظموا صفوفهم ويوحدوا جهودهم ضد السلطة العربية ليكونوا دولة بربرية. فهم يحاربون العرب من جهة ويحارب بعضهم بعضا من جهة أخرى. وغايتهم الرجوع لما ألفوه من الفوضى.

وأما كونها غير دينية فذلك ان التاريخ الإسلامي لم يحو بين دفتيه ان المسلمين رفعوا سيوفهم لالزام مخالفيهم بعقيدتهم اذ العقيدة سبيلها البرهان. وأيضا فقد كانت الدولة الاباضية بتيهرت تجمع طوائف مختلفي العقيدة من صفرية وسنية ومعتزلة. ولم تجبرهم الحكومة على عقيدتها. وأيضا الخارجية الممتدة في الغرب بكل سرعة لايعقل ان البربر تمسكوا بها في تلك الحصة من الزمان عن فهم لمبادئها وإدراك لأصولها وإيمان بصحتها وفساد غيرها. وانما الذي فهموه منها وعقلوه عنها هو الثورة على السلطة المحلية لالكونها عربية أو غير عربية. هذا الذي أدركوه سريعا وهو ما

كانوا عليه قديما. فقد نصروا قبل مذهب دونتوس المسيحي لكونه ثائرا على حكومة الرومان. يوضح لك كون البربر لم يكونوا خوارج عن علم كخوارج العرب ما أتته ورفجومة من العبث بمسجد القيرواني وسكانها حتى غير منكرهم أبو الخطاب الخارجي العربي. وذكر اليعقوبي في كتاب البلدان برقة وأهلها الذين منهم مزاته. فقال: «**ومزاته كلها أباضية على أنهم لايفقهون ولاهم دين**» هذا في القرن الثالث عصر اليعقوبي. ولكون الخارجية البربرية عبارة عن ثورة فوضوية فارق أكثر البربر الخارجية في كل جهة استتب بها النظام وثبتت بها قدم دولة غير خارجية. فقد انقطعت الخارجية أو كادت، من المملكة الأغلبية شرقا والادريسيةغربا. وبقيت بالمملكة الرستمية الاباضية حتى قضى عليها الشيعة. نعم بقيت الخارجية في الجهات الجنوبية كورقلة ومزاب متحصنة بعطش الصحراء وسمائها بعيدة عن نفوذ أغلب الدول الشمالية فحافظت على عقائدها وعوائدها غير متأثرة بالانقلابات السياسية.

الإمارات الأباضية:

خدمت الصفرية بالجزائر، فلم يكن لها شأن يذكر بعد حصار طبنة. وبقيت الأباضية في أفخاذ وبطون من قبائل لماية ولواتة وزجالة ونفزاوة وهوارة ومزاته وزواغة ومطماطة ومكناسة ويفرن ومغراوة وبني سنجاس وبني دمر.

ولم يتحد الأباضيون من هذه القبائل تحت إمرة واحدة. بل كان منهم الخاضعون للأغالبة أو للادراسة وإخوانهم بني سليمان، ومنهم المستقلون تحت إمارات متعددة. واشتهر من إماراتهم إمارة بني رستم بتاهرت. وافادنا اليعقوبي من أهل القرن الثالث بثلاث إمارات سواها وهي:

1- إمارة بني دمر: هم قوم من زناته في بلاد واسعة ذات زرع ومواش. موقعها على مرحلة غربي هاز. ويليها في الشمال الغربي سوق كرام. قال اليعقوبي في كتاب البلدان: «**ورئيسهم يقال له مصادف بن جرتيك-. بين حصنة وبلد متيجة مسير ثلاثة أيام مما يلي البحر**».

وذكر البكري في الطريق من تاهرت إلى المسيلة حصن تامغليت. فقال: «**وهو على مرحلتين من تاهرت. مبني بالطوب على نهر. له ربض وسوق. يسكنه بنو دمر من زناتة. إلى ايزمامة، حصن له سوق. وفيه فنادق تسكنه لواتة ونفزاوة. إلى مدينة هاز**».

وسوق كرام منهم من يحذف ميمها أو يبدلها نونا. قال البكري: «**وهي على نهر شلف**» وموقعها على مرحلة شرقي مليانة. ومنها إلى أشير ثلاث مراحل.. ولها سوق يوم الجمعة يقصده بشر كثير.

قال اليعقوبي: «**وليس أهله بشراة. ولكنهم جماعية.. بلدهم بلد زرع**». وهو يظهر ان هذه الإمارة بنواحي قصر البخاري.

2- إمارة هوارة: قال اليعقوبي: «**ومن تيهرت وما يحوزه عمل ابن افلح الرستمي إلى مملكة رجل من هوارة. يقال له ابن مسالة الاباضي الا أنه مخالف لابن افلح يحاربه. ومدينته التي يسكنها يقال لها الجبل. إلى مدينة يلل، تقرب من البحر المالح، مسيرة نصف يوم. ولها مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار. ثم من مملكة ابن مسالة إلى مملكة لبني محمد بن سليمان**».

وذكر البكري قلعة هوارة فقال: «**وبغربي مستغانم على نحو ثلاثة أميال مدينة تامزغران. وهي مسورة لها مسجد جامع. وعلى مقربة منها قلعة هوارة. ويسمونها تاسقدالت. وهي في جبل لها ثمار ومزارع. وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات. وهو النهر الذي يسقي به فحص سيرات**».

وفحص سيرات هو سهل سيق. ولا يصح أن تكون هذه القلعة هي مدينة الجبل لأنها غربي يلل. ومدينة الجبل شرقيها. فتكون قريبة من غليزان. نعم تكون قلعة هوارة من جملة هذه الإمارة.

والظاهر ان الجبل هي قلعة مغيلة دلول. فان البكري لما ذكر الغزة - وهي غليزان - قال: «**وبقربها على البحر قلعة مغيلة دلول. وهي في أعلى جبل منيف هناك شديدة الحصانة. بينها وبين البحر خمسة فراسخ. وبها عين ماء تسمى عين كردي. وبين قلعة دلول هذه ومدينة مستغانم مسيرة يومين**».

ومن هذا يظهر ان هذه الإمارة واقعة جنوب أسافل شلف حوالي نهر مينة بين سهلي منداس شرقا وسيق غربا.

3- **إمارة بني مسرة:** مدينتها تدعى أوزكي على ثلاث مراحل من تيهرت في الجنوب الغربي. ومنها إلى سجلماسة نحو سبع مراحل. قال اليعقوبي: «**والغالب عليها فخذ من زناته يقال لهم بنو مسرة. رئيسهم عبد الرحمن بن أودموت بن سنان. وصار البلد بعده لولده. فانتقل ابن له يقال له زيد إلى موضع يقال له ثاربينة. فولده به**».

والظاهر إن هذه الإمارة كانت ناحية سعيدة. هذا ما علمنا من حديث الإمارات الأباضية وغالب الظن أن هناك إمارات أخرى جهلناها. فإن البربر يومئذ إنما يألفون سيادة العشيرة. ويأنفون من الخضوع لرئيس من قبيلة أخرى. ولم تقم بالمغرب الأوسط دولة قوية تحملهم على الأنضواء تحت لواء حكومة مركزية. نعم كانت الدولة الرستمية تحاول ذلك ولكن لم تستطع تحقيق هذا الحلم.

تأسيس الدولة الرستمية:

استولى أبو الخطاب على القيروان. فعزم أبو جعفر المنصور على افتكاكها منه. فولى محمد بن الأشعث مصر والمغرب وأمره بحرب البربر. فجهز ابن الأشعت جيشا بقيادة أبي الأحوص عمرو ابن الأحوص العجلي. وبلغ أبا الخطاب قدوم أبي الأحوص إلى افريقية. فترك بالقيروان

عبد الرحمان بن رستم واليا وذهب هو إلى طرابلس كي يعترض جيش أبي الأحوص وذلك سنة **41** ولما نشبت الحرب انهزم أبو الأحوص سنة **42** فخرج ابن الأشعث نفسه من مصر يقود الجيوش. وبلغ خبره أبا الخطاب. فأرسل إلى ابن رستم بتجهيز الجيوش. واللحاق به. ولكن ابن الأشعث بلغ طرابلس قبل مدد عبد الرحمن. فدارت الحرب واشتد القتال وانجلى عن قتل أبي الخطاب في صفر سنة **44**.

ولما كان عبد الرحمان بقابس بلغه وفاة أبي الخطاب. ففت ذلك في عضد جيشه. وتفرق عنه. وثارت قابس بعاملها، فكر عبد الرحمن إلى القيروان فألفاها ثائرة عليه أيضا، فاحتمل أهله وولده وتوجه إلى المغرب الأوسط، ونزل على لماية من قبائله، وكانت قبائل غيرها أباضية أيضا، ولكنه اطمأن إلى لماية لقديم حلف بينه وبينهم، فإن النزعة المذهبية وحدها لا تكفي، وقد شاهد قبل عدم ثبات الأباضيين معه.

نزل عبد الرحمن جبل سوفجج. ولا نعرف جبلا بهذا الاسم. ولكن لا بد ان يكون بنواحي تيهرت حيث لماية، وذاع خبر نزوله بهذا الجبل فقصده ابن الأشعث في جيش عظيم، ونزل بسفحه وخندق على معسكره، وحاصر الجبل زمنا فامتنع عليه، ولما طال مقامه استشار أركان حربه، فبعضهم أشار بالمقام حتى يفتح الجبل وبعضهم أشار بالإقلاع والعود إلى القيروان، فأقلع عن الحصار لما رأى من مناعة الجبل واختلاف كلمة أصحابه.

وبقي عبد الرحمن في الجبل وقصده الأباضية هناك من كل مكان حتى جبل نفوسة بطرابلس، ولما كثر جمعه خرج من حصن الجبال إلى حصن الرجال، وفكر هو وأصحابه في تأسيس مدينة تكون رمزا لاستقلالهم وحصنا يمتنعون به على من ناوأهم، فأنشأوا مدينة تيهرت سنة **144** وبذلك تأسست الدولة الرستمية وحافظت على استقلالها زمنا طويلا، ولم يكن أباضيتها كغالب الخوارج همهم الثورة بل كانوا كخوارج العرب همهم تنظيم دولة على مباديهم.

ومن ههنا يظهر أن تأسيس الدولة الرستمية بعد جواز عبد الرحمن ابن معاوية إلى الأندلس، وقال المقري في نفح الطيب عن ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل لما فر من بني العباس ودخل المغرب الأوسط استجار بني رستم ملوك تيهرت وتقلب في قبائل البربر حتى استقر بساحل البحر عند قوم من زناته، وهي رواية مشكلة لأن عبد الرحمن دخل الأندلس سنة **38** قبل تأسيس تيهرت بست سنوات، إلا أن يكون لعبد الرحمن بن رستم نفوذ ديني في بعض قبائل المغرب الأوسط، فقد ذكر ابن خلدون وغيره ان حلفه مع لماية قديم، فاستجار به عبد الرحمان الداخل لذلك، وعلى ان يكون ابن عبد الحكيم تجوز في قوله ملوك تاهرت يريد الذين صاروا ملوكها من بعد. ويرشح صحة رواية ابن عبد الحكم على ذلك التجوز أنه كان بين رستمي تيهرت وأمويي الأندلس علاقات حسنة.

هكذا تأسست دولة الرستميين إسلامية في قضائها عربية في معارفها بربرية في عصبيتها فارسية في إدارتها. وما جمع بين هذه الأجناس غير الرابطة الدينية. فلتحي الرابطة الإسلامية!

المساحة الرستمية:

المملكة الرستمية واقعة بين مملكة الأغالبة شرقا والإدارسة غربا، وتمتد شمالها ممالك صغير للعلويين من إخوان الإدارسة، وينفسح لها المجال جنوبا إلى ورقلة، ويمتد منها شريط على وادي ريغ إلى الجريد وجبال دمر إلى طرابلس وجبال نفوسة.

وقد عنيت بالبحث عن تعيين حدود هذه المملكة بالجزائر فلم أظفر برواية شافية، وقد ذكر ابن الصغير في كتابه أخبار الأيمة الرستميين أن عبد الوهاب ثاني أيمتهم «**دان له ما لم يدن لغيره حتى أنه حاصر مدينة طرابلس وملك المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان، وأجمعت عليه كلمة الناس إلى أن حدثت الفرقة بتداخل العامة في شؤون الملك وطلبها عزل قاضي تيهرت وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة، فلم يجبها عبد الوهاب، وحدثت الفتنة**».

وهذه الرواية على إجمالها تفيد أن امتداد المملكة إلى ناحية تلمسان إنما كان أيام عظمة عبد الوهاب قبل حدوث الفتنة، ونقل الباروني عن أبي عبد الله إلينا الذي ألف كتابه سنة **375** نسبة مدن كثيرة إلى تيهرت،

وبني على هذه الرواية قوله: «**كل المدن والقرى الواقعة بين الزاب وفاس وسجلماسة داخلة في مملكة تيهرت**».

وهذا بناء على غير أساس، أما أولا فإن إلينا لم يذكر أن تلك المدن تبعت تيهرت أيام الرستميين، وقد ذكر منها وهران التي أسست سنة **290** وأفكان التي أسست سنة **338** وأما ثانيا فإن إضافة تلك المدن إلى تيهرت إنما هي لكونها أشهر مدن الإقليم يومئذ فهي اضافة جغرافية لا سياسة، وقد ذكر من الأمصار برقة وأضاف إليها مدنا لشهرتها بذلك الإقليم ليس الا، وأما ثالثا فإن أكثر تلك المدن كان تابعا للعلويين أو الأغالبة كما يأتي في البابين الثالث والرابع، وتقدم ذكر ما كان منها تابعا للإمارات الأباضية غير الرستمية، ولكن يظهر ان من تلك الإمارات ما انفصل عن تيهرت بعد الثورة على عبد الوهاب.

ويمكننا أن نحد الجزائر الرستمية بعد انفصال تلك الإمارات عنها بتلول منداس شمالا إلى قرب غليزان. ويذهب الخط جنوبا من هناك إلى فرندة وينعطف شرقي جبل العمور لأن أهله يومئذ بنو راشد وهم غير أباضية وأولو قوة. ومن هناك يذهب إلى وطن ميزاب إلى ورقلة. هذا في الجهة الغربية. ومن الجهة الشرقية يذهب الخط إلى تيسمسيل والسرسو ويتصاعد إلى ثنية الأحد. ويذهب مشرقا إلى قصر البخاري وأعالي وادي شلف. ويذهب جنوبا شرقي الأغواط إلى تقرت ووادي ريغ. ويظهر أن هوارة أوراس خارج هذا الخط كانت خاضعة لتيهرت للعصبية المذهبية.

هذا ما هدانا اليه البحث وطول التروي وإجالة النظر في طبائع السكان ومذاهبهم وقوتهم يومئذ. ولا يعرف ما في ذلك من عناء الأمن خاض أمثال هذه المواضيع. وخانته الرواية. وحمله دينه على الأمانة. وكلفته عنايته بالقارئ الإيضاح.

وبعد فإننا نجهل مبلغ النفوذ السياسي للرستميين في هذه المملكة. ويظهر من حديث ابن الصغير عن أسباب حدوث الخلاف على عبد الوهاب ووقوع تلك الفتنة أن نفوذهم ذلك لا يعدو تيهرت. وهاك ملخص كلامه. قال:

«كانت قبائل مزاتة وصدراته وغيرهم ينتجعون في فصل الربيع أحواز تيهرت. فيدخل رؤساؤهم المدينة وينزلون على إخوانهم بها. فيبرون ويكرمون. ثم يخرجون إلى نعمهم فيقيمون معها إلى ظعنهم.

وفي سنة الفرقة اجتمع من المنتجعين عدد كثير لم يجتمع قبل. فلما دخلوا المدينة وخلا وجوه كل قبيلة من سكانها بإخوانها النازلين عليهم شكوا إليهم جور القاضي وخيانة صاحب بيت المال وفسق صاحب الشرطة. وطلبوا منهم إبلاغ ذلك إلى الأمام عبد الوهاب. ففعلوا. وسألوه عزلهم وتولية من هو خير منهم. فأبى ذلك حاشية الإمام. وكانت الفتنة».

وهذا يشعر بأن أولئك المنتجعين ليس عليهم من قبل الإمام قاض ولا وال. وإلا كانوا يسألون عزل ولاتهم قبل أن يسألوا ذلك لإخوانهم

أهل تيهرت. على ان نفوذ الرستميين بتاهرت كانوا مزاحمين فيه. فقد يخرجون منها ويتغلب عليها مزاحموهم.

الحكومة الرستمية:

الدولة الرستمية مستقلة استقلالا تاما. وحكومتها كسائر الحكومات الإسلامية مقيدة بالكتاب والسنة واثر السلف. فهي دستورية إنما دستورها الهي تقبله العقول وتذعن له القلوب. فهي في غنى عن مجلس تشريعي. إنما حاجتها لرجال الدين. والسلطة التنفيذية للرئيس وأعوانه. والقضائية مستقلة تماما.

والرئيس الأعلى يعين بالانتخاب لمدة حياته أو بالعهد اليه من سلفه. ويلقب الأمام والخليفة وأمير المؤمنين.ولايدعى هذه الألقاب من رؤساء الدول الصغرى غير الخوارج. وللإمام مستشارون كالوزراء في الدول الكبرى وحفظة لبيت المال ومحتسبون ورجال شرطة.

وظيفة المحتسبين الرفق بالحيوان وقمع الغش والمحافظة على النظافة. فيؤدبون الغاش ويخففون حمل الدواب ويأمرون بازلة القاذورات. والشرطيون يطوفون بدروب المدينة وانهجها لحفظ الأمن وتغيير المنكر ولما أضعفت الفتن الدولة كثر الفجار وشربة الخمور.فلما كانت امامة أبي حاتم ولى الشرطة رجلين اشتدا في تغيير المنكر. فكسرت خوابي الخمر وشردت الغلمان وأخدانهم في الجبال.

وكان للقاضي دار وسجل وخاتم. وولي القضاء على عهد أفلح محكم الهواري من أهل أوراس. فتنازع أبو العباس أخو أفلح وصهر له على أرض. وترافعا إلى أفلح فردهما إلى القاضي. فسبق أبوا العباس. وجلس حذاء القاضي واستسقى جاريته. وبصر الخصم بمنزلة أبي العباس. فجلس خارج الباب. فلما رآه القاضي سأله عن موقفه. فأخبره الخبر. غضب من هذا التحليل. ووبخ أبا العباس. واستدنى الخصم وسقاه ماء إظهار للمساواة. وهذا اصل القضاء الإسلامي اذ يوجب التسوية بين الخصوم.

ولنفوسه المنزلة السامية. فهم الذين يعينون الأئمة فمن دونهم. ويشاركهم زعماء القبائل في النظر في الأمور العامة. يجمعهم الإمام بالمسجد اثر الصلاة.

وللحكومة جند من العرب والعجم. وجل الاعتماد على القبائل الموالية لها. وكان للماية وحدهم ثلاثون ألف فارس. والمالية تجمع من الزكوات والجزية وخراج الأرضين. قال ابن الصغير متحدثا عن الجباة ومصارف مال الجباية:

«يخرج أهل الصدقات أوان الطعام. ويأتون أهل النعم. فيقبضون الواجب لايظلمون ولا يظلمون. فالطعام يدفع للفقراء. والشاة والبعير تباع. ويدفع منها عطاء العمال. وما بقي يوزع على الفقراء. فيحصون من في البلد منهم ومن حولها. ويحصى ما في هراء من الطعام. ويشتري

من باقي مال الصدقة أكسية صوف وجباب وفراء وزيت. ويدفع لاهل كل بيت بقدر ذلك. ويؤثر بأكثر ذلك الاباضيون. وما اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه وقضاته وأهل شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين».

وهكذا ترى أن مالية الدولة على ضيق مواردها يرد أكثرها على فقراء الأمة لبساطة النظام وانحصار المملكة في تيهرت وما حولها.

وكان بنو رستم يرمون التوسع شرقا ليرتبطوا ببني جنسهم وأهل مذهبهم. ولكن أمامهم دولة بني العباس القوية التي تود سحقهم لولا ان وجودهم لازم لحفظ الموازنة بين دول المغرب. فبنو أمية والادارسة يرونهم حاجزا بينهم وبين الا غالبة. والاغالبة عرفوا صعوبة مراس البربر. فضنوا بسلطانهم عن أن يضيعوه في حربهم إرضاء لبني العباس. وبنو العباس ليس لهم بد من إبقائهم سدا في وجوه تلك الدول.

وعلاقة الرستميين مع دولة مكناسة بسجلماسة حسنة لرابطة الخارجية وتقارب الاباضية والصفرية. وعلاقتهم كذلك مع بني أمية امراء الأندلس. قال البلاذري في كتابه فتوح البلدان:

«وكان محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب احدث سنة 239 مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية. فأخرجها أفلح بن عبد

الوهاب الاباضي. وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا اليه به. فبعث اليه الأموي مائة ألف درهم».

وعلاقتهم مع أمراء القيروان تختلف سلما وحربا. ولم نعلم لهم حربا مع الأغالبة بالجزائر. وقبلهم عقدوا سلما مع روح بن حاتم. قال ابن الخطيب في كتاب الاعلام: «**وملئ البربر من روح رعبا. ورغب الاباضيون منهم في موادعته**». وفي ابن خلدون ان موادعة روح كانت لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم سنة **171** ذكر ذلك في موضعين وحرفهما النساخ بما يجعل بينهما اختلافا.

واشتبك الرستميون بالبربر بعدة مصاهرات. فكانت أم عبد الوهاب يفرنية وزوجه لواتية. وهذه سياسة رشيدة. خالفها أفلح ابن عبد الوهاب. فانه خشي من قوة القبائل المجاورة لتيهرت. فعمد إلى سياسة التفريق. وبث الجواسيس والمفسدين بين الرئيس ومرؤوسه والقبيلة وحليفتها. فاختلقت الآراء. وانحلت الروابط. وانطوت الصدور على الضغائن. واستحكمت النفرة بين القبائل. وظن أفلح أنه أفلح في سياسته. ولكنه ترك لمن بعده تراثا سيئا. فان سيادة تبنى على الدسائس لابد ان ينهار صرحها لاول ضعف يبدو في الدولة. وهذا ما وقع بعد أفلح. فقد كانت أيامه خاتمة شباب الدولة وسياسته علة ضعفها.

الايمة الرستميون:

مبدأ الخوارج ان الإمامة لاتنحصر في أسرة معينة. ولكن امامة تيهرت انحصرت في بني رستم. ولعل سبب ذلك المنافسة البربرية والسياسية الرستمية. فان منافسة البربر بعضهم لبعض أشد من منافستهم لأجنبي عنهم. فلو انتقلت الإمامة إلى قبيلة منهم لرامت الاستئثار بها ونازعتها بقية القبائل. والرستميون كانوا يقربون إليهم النقوسيين الأجانب مثلهم من المملكة ثقة بعدم مزاحمتهم لهم لفقد عصبيتهم.

– عبد الرحمن بن رستم 144–68هـ 761–84م

لا خلاف انه فارسي. ونسب البكري رستما إلى بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الأكتاف الملك الفارسي. فيكون عبد الرحمن من سلالة الملك. وجعله ابن خلدون من ولد رستم أمير الفرس يوم القادسية. وهو ليس من بيت الملك بل هو أرمني.

بويع عبد الرحمن أولا بالإمارة ثم بالإمامة سنة **60** بعد وفاة أمامهم أي حاتم، وقدموه لأنه لاقبيلة له تحميه إذا جار. وكان عالما زاهدا متواضعا. يجلس في المسجد للأرملة والضعيف. قال ابن الصغير: «**وسيرته واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب**».

– عبد الوهاب 168-88هـ 784-803م

بويع بعد وفاة أبيه. وكان مرشحا للإمامة في حياته. واختلفت عليه الكلمة، فاسكت الخصوم بالحرب والسياسة. قال ابن الصغير: «**وكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا. اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضي قبله. ودان له منهم ما لم يدن لغيره. واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله**».

– افلح بن عبد الوهاب 188- 238هـ 803-52م

كان مرشحا للإمامة حياة والده. فبويع بها بعد وفاته. وكان داهية استطاع ان يحافظ على هناء تيهرت مدة إمامته. قال ابن الصغير: «**وعمر في إمارته ما لم يعمره أحد ممن كان قلبه. أقام خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وبنو البنين وشمخ في ملكه**».

ولم يذكر ابن الصغير سنة وفاته. وتقدم عن البلاذري أنه أخرب العباسية سنة **39** ولكن ابن خلدون يقول أنه أخربها سنة **27** فيحتمل أن أفلح توفي لتمام خمسين سنة من إمارته وانه عاش بعدها قليلا.

– أبو بكر بن أفلح

بايعته نفوسه ولم يرضه بعض أهل المدينة. وكان ميالا إلى الراحة مولعا بالأدب تاركا الأمر لأخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة وهو رجل من وجهاء المدينة. فنفس عليه حاشية الإمام تلك النزلة. وسعوا في اغتياله. فقتله غيلة. وفتحت عليه فتنة أخرجته من تيهرت. واستولى عليها

محمد بن مسالمة الهواريي، قال الباروني: «**والظاهر أن مدته لم تبلغ سنتين**».

– أبو اليقظان محمد بن أفلح 241–81هـ 855–94م

حج أيام والده، وتقبض عليه العباسيون، فسجنه الواثق مع أخيه المتوكل، فلما توفي الواثق وخرج المتوكل من السجن إلى قصر الخلافة سرح أبا اليقظان وأحسن اليه، فعاد إلى تيهرت، وقد اكتسب خبرة بشؤون الملك. فلما اخرج أبو بكر من المدينة خرج هو أيضا، ونزل بحصن لوتة، وهنالك بويع حوالي سنة **41** وزحف إلى تيهرت، **فامتنعت** عليه سبع سنين. ثم دخلها. وعفا عن الثوار. واحيا رسوم الدولة، وكان يباشر التدريس بنفسه وتوفي باتفاق **سنة 281**.

قال ابن الصغير: «**عاش أبو اليقظان مائة سنة أو نحوها. وبقي في إمارته نحوا من أربعين سنة. أدركته وحضرت مجلسه. وكان مربوع القامة ابيض الرأس واللحية (لأنه أدركه شيخا) زاهدا ورعا ناسكا. افتتنت به نفوسة الجبل حتى أنها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم**». وهذا ان كان فإنما هو من بسطاء العامة التي لاتعرف للتعظيم حدا.

– أبو حاتم يوسف 281–94هـ 894–906م

هو ابن أبي اليقظان. بويع بعده. وكان شابا جميل الهيئة كثير المروءة واسع الإحسان محببا لدى العامة قبل ولايته. فلما بويع اضطربت عليه

الأمة. وثارت به الفتن. فأخرج من المدينة. ثم عاد إليها، وائتمر به بعض قرابته فقتلوه سنة **294**.

وكان بكر بن حماد قد أوضع في الفتنة. فلما عاد إلى تيهرت اعتذر له بقوله:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها — وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها: — «عزيز علينا ان نراك تسير،»[1]
فقلت جفاني يوسف بن محمد — فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة — ولكن أتت بعد الأمور أمور
فاكرهني قوم خشيت عقابهم — فداريتهم، والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره — إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

- يعقوب بن أفلح

هو اخو أبي اليقظان. كان يأمل الإمارة بعده، فلما صرفت إلى أبي حاتم ارتحل إلى زواغة، فلما أخرج أبو حاتم من المدينة وحاصرها، استقدم أهلها يعقوب، وبايعوه. فحارب ابن أخيه، ثم سعى إلى أهل الفضل في إيقاف الفتنة، فعقدوا مجلسا حضره المبعوثون من الطرفين: فحكموا برفع يديها معا عن الحكومة لمدة أربعة أشهر، وهذا هو التحكيم الذي أنكره سلفهم على علي (ض).

[1] النواسي هو ابو نواس الحسن بن هانيء الحكمي. من أهل المائة الثانية. وذلك الشطر من كلمة له طويلة يمدح بها الخصيب.

وفي هذه المدة كان أبو حاتم يستميل اليه الناس بسياسته ويستألفهم بصلاته، فلم تمض المدة حتى كان جمهور الناس معه. فاستقدموه من قصره بابي مينة، وأعادوه إلى قيصر الإمارة.

وغادر يعقوب المدينة ليلا إلى زواغة بعدما قام أميرا نحو أربع سنوات، وكان بعيد الهمة نزيه النفس ذا غرائب في مأكله وملبسه، وعاش حتى استولى الشيعة على تيهرت، فارتحل إلى ورقلة، وعرض عليه أهلها بيعتهم، فقال:

«**لا يستتر الجمل بالغنم**» ومات هنالك.

- اليقظان بن أبي اليقظان 294-296هـ 906-909م

بويع بعد قتل أخيه أبي حاتم، ولم يتمتع بالملك طويلا، فبقي مدة عامين وأمره في اضطراب إلى أن قتله الشيعة في طائفة من أسرته، في شوال سنة **96** وانتهت به الدولة الرستمية.

تناسل بنو رستم بتيهرت وكثر عددهم ومع ذلك لم يزدحموا على الملك إلا ما كان أيام أدبار دولتهم من القيام على أبي حاتم ثم قتله. فلهم بذلك مزية على غالب الأسر المالكة.

الاقتصاد والحضارة:

المملكة الرستمية صحراوية. ولهذا اتخذت عاصمتها حيث الجبال المتصلة بالصحراء. فالغالب على أهلها الترحال وسكنى الخيام والقيام على المواشي والتجارة في البر أم التجارة البحرية فبأيدي غيرهم لعدم اتصال المملكة بالسواحل. فلم يكن للرستميين مراكب بحرية ولامصانع لها.

والتجارة البحرية يومئذ للأندلسيين. فهم الذين يؤمون ببضائعهم المختلفة مراسي الجزائر مثل مرسى الدجاج وتنس ومرسى فروخ القريبة من مستغانم شرقا. ولهم اتصال بالرستميين في التجارة خصوصا من مرسى فروخ.

وأهم تجارة تيهرت إلى السودان. ولملوكها علائق حسنة مع الرستميين. ولها اتصال بالمشرق أيضا على طريق الصحراء إلى القيروان وطرابلس ومصر.

وعني بنو رستم بتأمين طرق القوافل. فكانوا يرسلون من طرفهم حامية تتلقى القوافل. وهذا أبو حاتم توفي والده وهو غائب. ذهب في جيش لحماية قوافل من المشرق.

وهكذا كانت البضائع تصدر من تيهرت واليها برا وبحرا وغربا وشرقا وشمالا وجنوبا. فتأتيها بضائع الأندلس والمغرب الأقصى والسودان وافريقية ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن.

وكانت الدواب والمواشي كثيرة بمملكة تيهرت. يكثر بها البقر والغنم وتوجد بها الخيل المسومة والبراذين الفراهيد. وللناس عناية بالفلاحة

خصوصا حوالي الأودية. يزرعون القطن والكتان والسمسم والكسبر والكمون وغيرها. ويغرسون الأشجار المختلفة.

ونشط الناس لإنشاء العمارات والقصور في الأماكن الصالحة لها. فكان للأسرة الرستمية حصن في جوار لواتة يدعى تالميت به مواشيهم وعبيدهم. وللأمراء منهم قصور ومنتزهات في أملاكهم خارج تيهرت. وقد أطال ابن الصغير الحديث عن القصور. وقال: «**وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة قد ابتنت العدوة والجند القادمون من افريقية قد ابتنوا العامرة اليوم**».

وانتقلت مع التجارة التي هي أهم موارد تيهرت حضارات الممالك الأخر. وأضيفت إلى حضارة البلاد الموروثة عن الرومان والروم. وتكون من مجموع ذلك حضارة تيهرتية مزيجة من عدة حضارات. فكانت تصنع بهذه المملكة نسائج الصوف والكتان وأواني الخزف والطين والزجاج والأثاث من الخشب المنحوت والمخروط والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف. والصنائع متركبة من بربرية وفارسية وعربية ورومية وأندلسية. عليها طابع الحضارة الإسلامية.

وقد جاء بعد الرستميين دول إسلامية ذات حضارة متقاربة. فلا سبيل إلى تمييز ما أبقته الحضارة الرستمية بالوطن الجزائري. ولو عني بالبحث عن آثار تيهرت لأمكن الوصول إلى شيء عن معرفة هذه الحضارة. ووطن مزاب حافظ حقا على عوائده القديمة ولكن طول المدة

وتوالي الفتن وضعف أهله مما يمنع الاعتماد على حضارته لمعرفة الحضارة الرستمية.

العلوم والآداب:

نشأت الدولة الرستمية في بداية تاريخ المسلمين العلمي بما كان من إقبال المنصور العباسي فمن بعده على تجهيز المسلمين بالعلوم والمعارف بعد ما قضوا لبانتهم من الآداب العربية وبلغوا فيها الدرجة السامية أيام بني أمية.

وقد عني الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية. ولكن عنايتهم بالعلوم الدينية أشد. فكانوا ايمة في العلم كما كانوا ايمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار والعلوم الرياضية. واشتهروا بالتنجيم والرمل. فعبد الرحمن كان مفسرا وله في التفسير تأليف.وابنه عبد الوهاب برز في العوم الدينية. ونبغ أفلح في الأدب وله في فضل العلم ومزاياه والتحريض عليه قصيدة مطلعها:

العلم أبقى لاهل العلم آثارا   يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

وهي طويلة جيدة أثبتها الباروني بتمامها مشطرة. وكان من ايمة بني رستم من انتصب للتدريس بالمساجد العامة. وأرسل عبد الوهاب إلى اباضية البصرة ألف دينار ليشتروا له بها كتبا. فلما بلغتهم اشتروا ورقا استنسخوه كتبا. قالوا فكانت تلك الكتب وقر أربعين جملا. وجهوها له

واتصل بها. وكانت بتيهرت مكتبة تدعى المعصومة قد حوت آلافا من المجلدات. ولما دخلت الشيعة تيهرت أحرقوا مكتبتها ما عدا كتب الرياضة والصنائع والفنون الدنيوية.

وكانت العربية هي لسان الدولة الرسمي. يدل لذلك رسائل الرستميين إلى الأمة البربرية في الحث على الطاعة والتمسك بالدين، وعقود ولايتهم لعمالهم بطرابلس. وقد أثبت الباروني نصوص رسائل وعقود. وكانت العربية لسان علومهم وآدابهم أيضا. إذ جل عنايتهم بالعلوم الدينية التي لا لغة لها غير العربية.

ولم تفكر الحكومة الفارسية في نشر اللغة الفارسية أو اتخاذها لغة رسمية إذ لا داعي لذلك لا من حيث الدين ولا من حيث السياسة. فالدين لغته عربية. وكون بني رستم في غير وطنهم بين قوم أشداء في عصبيتهم مما يدعوهم إلى إعفاء العصبية الجنسية وأحياء الرابطة الدينية التي لا يجمعهم بالبربر غيرها.

واقتدت الأمة البربرية بحكومتها ـ والناس على دين ملوكهم ـ في العناية بالعربية وعلومها وآدابها. ولم يصدهم عنها ثورتهم على الحكومة العربية لأن للثورة أسبابا يغلط جدا من يجعل من بينها عداء البربر للعرب جنسيا أو دينيا أو علميا اذ ليست فكرة عداء العرب والعربية موجودة لدى الأمم الإسلامية يومئذ. وانما هي وليدة عصرنا الحاضر. تستتر بها الملحدون توصلا لهدم التعاليم الإسلامية ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الملحدون.

وعاشت البربرية مع العربية عيشة العامية اليوم مع الفصحى. وكان من البربر شعراء بالبربرية مجيدون نظير ما نسمع اليوم من قصائد عامية بليغة. والفت بها التآليف الدينية حرصا من رجال الدين على إيصال عقائده وعباداته إلى العامة اذ لم يكن البربر يحسنون ـ طبعا ـ جميعهم العربية.

وكان بالمملكة التيهرتية مذاهب غير الاباضية. منها الصفرية. كان لهم حصن تالغمت (**يدعى اليوم تيلغمت. وهو وسط بين الأغواط وغرداية**). والواصلية. مجمعهم قريب من تيهرت. يسكنون بيوت الشعر. ويعتدون في نحو ثلاثين ألفا. والعراقيون الشهيرون بالرأي والقياس والحجازيون الشهيرون بالسنة والأثر.

ولهذه الطوائف مساجدها وعلماؤها وحلق دروسها. وكانوا بتيهرت يجتمعون للمناظرة والمباحثة في دائرة الأدب وقانون العلم بغاية الحرية. قال ابن الصغير: «**ومن أتى إلى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة. وكذلك من أتى من الاباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله ذلك**». وقال متحدثا عن الاباضيين:

«**ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفونه عن حاله. ولو رأوه رافعا يديه، ما خلا المسجد الجامع فإنهم إذا رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه فإن عاد ضربوه**». قال الباروني: والمسجد الجامع هو مسجد الإمام. ولعلهم يفعلون ذلك بغير إذنه وعلمه. يريد ان

ذلك من متعصبة العامة التي كثيرا ما تنصر دينها بما تأباه مبادي ذلك الدين نفسه.

أصبحت تيهرت معدن العلم والأدب ومحط رحال الطلبة حتى قال فيها عبد الله البنا: «**يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا**». ولست أشك في أنها دونهما ولكن حضورها في الذهن بحضورهما يكفي دليلا على تقدمها ورقيها.

وقد نسب إليها علماء كثيرون في مختلف الفنون. ذكر الباروني طائفة منهم. والفتن التي استمرت بتيهرت أواخر الحكومة الرستمية وبعدها ترشد إلى أن الذين عفت آثارهم أكثر من الذين عرفوا. فمنهم أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز. روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره. ومنهم الشيخ أبو سهل. كان أفصح أهل زمانه في اللسان البربري. ألف به تآليف احترقت في بعض الفتن. وتولى خطة الترجمة للإمامين أفلح ويوسف. ومنهم أبو عبيدة الأعرج.أثنى عليه ابن الصغير. وقال قرأت عليه كتاب إصلاح الغلط لابن قتيبة. ومنهم ابن الصغير صاحب أخبار الايمة الرستميين. وهو كتاب لغته قريبة من العامية لكنه المادة الوحيدة لهذه الدولة .

ونقل الكعاك عن المجلة الأسيوية الفرنسية الصادرة سنة **1843**م أن يهود بن قريش التاهرتي من أهل القرن الرابع كان يحسن العربية والعبرانية والبربرية والارمية والفارسية عالما بها جميعا متضلعا فيها. وقد اهتم بالبحث في اللغات وحاول المقاربة بين العبرانية والعربية والبربرية. وهو

واضع أساس النحو التنظيري. وله كتاب في ذلك باللغة العربية وجد بمكتبة أوكسفورد بإنكلترة وهو من أنفس ما سطر في الموضوع.

أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي:

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي. نشأ بتيهرت. وارتحل إلى المشرق في حداثة سنة **217** فسمع به الحديث من ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر. واجتمع بأدبائها مثل أبي تمام حبيب وعلي بن الجهم وصريع الغواني ودعبل. ثم عاد إلى القيروان. وسمع بها من سحنون وغيره. وجلس بها للحديث. ثم ارتحل إلى تيهرت ومعه ولده عبد الرحمن. فاعترضه لصوص جرحوه وقتلوا ولده! قال الباروني عن المراكشي: وكانت وفاته بقلعة ابن حمة جو في مدينة تيهرت سنة **296** وهو ابن ست وتسعين سنة. وكان ثقة مأمونا حافظا للحديث. قال المقري في نفح الطيب: ان قاسم بن اصبغ القرطبي رحل إلى المشرق سنة **274** ولقي بالقيروان بكر بن حماد الشاعر التاهرتي. وسمع منه حديث مسدد. ولما قرأ قاسم حديثا فيه مجتابي الثمار قال له بكر الثمار. و لم يسلم أحدهما للآخر. فقال بكر لنذهب إلى ذلك. يشير لشيخ بالمسجد. فحكم الشيخ لقاسم. فقال بكر ـ واخذ بأنفه ـ رغم أنفي للحق. وقال الباروني: ذكره يوسف بن ابراهيم الورجلاني في سلسلة حديث رواه بكتابة الدليل والبرهان. ومن هنا تعلم ان ثقته متفق عليها يروي عنه الخوارج وغيرهم.

وكان نابغة في الأدب. واشتهر بالشاعر. وله القصائد الطويلة الجيدة في الأغراض المختلفة من غزل ووصف ومديح وهجاء ورثاء واعتدار وزهد ووعظ. مدح الملوك والأمراء بالمشرق والمغرب وعارض دعبل من متعصبة الشيعة وعمران بن حطان من الخوارج.

وذكر الحافظ التنسي كلمته في معارضة مدح عمران بن حطان لابن ملجم على فعلته. وذكرها المسعودي أيضا في مروج الذهب ولكن لم ينسبها لأحد. ثم وقفت عليها منسوبة له في طبقات الشافعية الكبرى. وهي هذه:

قال لابن ملجم- والأقدار غالبة-	هدمت- ويلك- للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم	وأول الناس إسلاما وإيمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما	سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره	أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه - على رغم الحسود له-	مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا	ليثا إذا لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله، والدمع منحدر،	فقلت سبحان رب الناس سبحانا!!
إني لأحسبه ما كان من بشر	يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
اشقي مراد إذا عدت قبائلها	وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت	على ثمود بأرض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها	قبل المنية أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله	ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل مجترما	ونال ما ناله ظلما وعدوانا

«يا ضربة من تقــــي ما أراد بهـــا الا ليبلغ من ذي العرش رضوانـــا».
بل ضربة من ذوي أورثتـــه لظـــا مخلدا قد أتـــى الرحمـــن غضبانـــا
كأنـــه لم يـــرد قصـــدا بضربتـــه الا ليصلي عـــذاب الخـــلد نيرانـــا

وما روى له التنسي في الدر والعقيان قوله:

تبارك من ساس الأمور بعلمــــه وذل له أهـــل السمـــوات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عبـــاده وفضل بعض الناس فيها على بعـــض
فمن ظن ان الحرص فيها يزيده فقولوا له يزداد في الطول والعـــرض

وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا. ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها إلى عناية أدبية وغيرة قومية. وحسبنا أداء لحق هذا الشاعر المجيد والمحدث الثقة أن أفردناه بالكلام ونبهنا على فضله.

الحروب والفتن:

قامت الدولة الرستمية على جهود البربر الثائرين على حكومة القيروان، فلم ترق دماء في سبيل تأسيسها. ولم تجاهد كغيرها لإعلاء كلمة الإسلام لعدم مجاورة الكفار لها. على ان الخوارج إنما يعنون بالثورة على الحكومات الإسلامية، ويرون ملوكها جائرين على الإطلاق.

جاورها الادارسة ولم نعلم من حال هذا الجوار غير ما ذكره ابن خلدون في قوله: **«حارب بني رستم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان، وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم».**

وجاورها أمراء القيروان. ولم نعلم من حال هذا الجوار غير زحف عبد الرحمن لحصار طبنة فإنه نزل تهودا. فلما انجلى الحصار عن عمر بن حفص أنفذ جيشا لعبد الرحمن هزمه إلى تيهرت. ثم كانت المهادنة أيام روح. وجاءت الدولة الأغلبية. فلم نعلم حدوث شيء بينهما في الجزائر غير تأسيس مدينة العباسية واخراجها. هذا كل ما نعلم عن الحالة الخارجية للدولة الرستمية.

أما الحالة الداخلية فالحرب فيها أغلب من السلم. ذلك ان الحكومة لم تتمكن من بسط نفوذها في المملكة على ضيق رقعتها. فالقبائل مستقلة تحت امراء منهم. وليس ثم من وحدة سياسية ولا دينية. والحكومة أجنبية لاثقة لها بالأمة. وتتساهل لذلك في اتهامهم بالافتراء عليها. فنشأت الفتن من ضعف الحكومة وسوء ظنها بالأمة.

أول ما حدث فتنة يزيد بن فندين اليفرني، وسببها ان عبد الرحمن بن رستم لما احتضر ترك الأمر شورى بين سبعة منهم ابنه عبد الوهاب وابن فندين. فأسندت الإمامة لعبد الوهاب. وأبي ابن فندين من البيعة الا بشرط تأسيس مجلس من الأعيان يخضع له الإمام. فرفض اقتراحه. وسخطته الحكومة. فلم يصبر لهذه الاهانة وهو ذو عصبية. فأعلن الثورة.

وبعد وقائع كاد ابن فندين يتنصر. فطلب عبد الوهاب هدنة للنظر في شرطه وعرضه على اباضية المشرق ليفتوا فيه. فأجابه لذلك. وربح عبد الوهاب الوقت لجمع قوته ونشر دعايته بالمشرق وأحسن الخروج من المأزق.

أدرك ابن فندين مكيدة خصمه. فأعاد الحرب قبل ورود فتوى المشارقة. فدارت عليه الدائرة. وقتله أفلح بن عبد الوهاب. وتفرق جمعه. وبعد مدة ثأروا لصاحبهم من ميمون بن عبد الوهاب. فقتلوه. وعادت الحرب ثالثة. وانجلت بانتصار عبد الوهاب.

فتح ابن فندين باب الحديث في الإمامة وشروطها. فاتخذها أرباب المذاهب الأخر سلما للخروج عن طاعة الإمام الاباضي. فأعلنت الواصلية ثورتها. وقصدت فيمن انضم إليها تيهرت. وكانت وقائع أشد من الأولى. والتجأ عبد الوهاب لطلب الهدنة. وبعد أن انعقدت استنجد نفوسه طرابلس. فبلغته نجدتهم وعادت الحرب وانجلت بانتصار عبد الوهاب كأول مرة.

وتقدم في الفصل السادس ماكان من انكار بعض الناس لعمال عبد الوهاب وثورتهم. وانتهت بانهزامهم.

وكان أمير هوارة خطب بنت شيخ لواتة. فأشير على عبد الوهاب بمصاهرة لواتة حتى تتحد مع هوارة. فخطب تلك البنت وتزوجها. فوقعت بين الرستميين وهوارة حرب على نهراسلان. وتعددت المعارك. ثم انهزمت هوارة.

وكان أبوا بكر بن أفلح قد صاهر من أعيان المدينة رجلا يدعى محمد بن عرفة. وفوض اليه أمر الحكومة. فنفس عليه وجاهته بطانة الإمام. وزينوا له اغتياله. فأرسل اليه ليخرج معه إلى منتزه له يعرف بجنان الأمير. ولما قاما إلى صلاة المغرب طعن خادم أبي بكر ابن عرفة. وألقى

شلوه في شق هنالك فافتقد الناس ابن عرفة. ثم وقفوا على جلية أمره. واستخرجوا شلوه. فثاروا بأبي بكر وكان يوم من أشد الأيام. فقد فيه أبو بكر إمامته. وبقيت الحرب بين أنصار الحكومة وأعدائها قائمة على ساق. وحكمت أخيرا بفشل نفوسه والعجم.

قال ابن الصغير: «**لما نزل بالعجم ونفوسة ما نزل تفرقوا في أقاصي البلاد. فنزلت العجم بموضع يقال له تابغليت وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت[1] ونزلت الرستمية ومن لف لفها باسكيدال وبه أبو اليقظان. وهو مجمع الاباضية قبلة تاهرت على يوم أو أزيد قليلا. ونزلت نفوسة بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة**».

عقب هذه الفتنة استولى محمد بن مسالة على تاهرت. وحارب بقومه وأهل المدينة لواتة. وأجلاها إلى حصنها على مقربة من تاسلونت منبع عيون هو مينة. ودعت أبا اليقظان إلى جوارها.

هنالك اجتمع إلى أبي اليقظان شيعته. فذهب بهم إلى تيهرت. فامتنعت عليه سبع سنين. ثم استنجد نفوسه طرابلس. فأنجدوه. وتقوى بهم في حين أن أهل تيهرت أجهدهم الحصار. فتقدمت رسله إلى المدينة مبشرين ومنذرين. فرضي أهلها بإسلامها إلى أبي اليقظان على أن لايؤاخذوا بما ذهب أيام الفتنة من أنفس وأموال فرضي شرطهم ودخل المدينة. وأعلن العفو العام.

---

[1] تقدم في الفصل الرابع عن البكري تامغيلت بالميم. وإنه على مرحلتين من تيهرت. فالظاهر أنه موضع واحد يقال بالحرفين أو محرف في أحد الكتابين.

ونفى أبو حاتم بعض أعيان المدينة بتهمة التآمر على قتله، إلى موضع يدعى الثلة. وبعد مدة دخلوا تيهرت في حماية أنصارهم.فخشي أبو حاتم على نفسه. فخرج إلى تالميت في أهله والعجم ونفوسة. واجتمعت إليه لواتة وقبائل الصحراء ما عدا أهل تيلغمت فإنهم شايعوا التيهرتيين.

استعد أبو حاتم لفتح تاهرت. فقصدها من ثلاث جهات: جاء هو في الرستميين ولواته وغيرهم من ناحية القبلة. وزحفت العجم وصنهاجة ومن لف لفها من ناحية المشرق. وتقدمت نفوسة ومن انضاف إليها من ناحية المغرب. ودارت رحا الحرب من الجهات الثلاث. فرغب التيهرتيون في السلم. فاشترط أبو حاتم تسليم شيوخهم اليه يرى فيهم رأيه. فلم يقبلوا. وعادت الحرب. واستدعى التيهرتيون يعقوب بن أفلح من مكانة بزواغه. وكان منابذا لإبن أخيه. فبايعوه. وانحازت إليهم بذلك طائفة من لواته. وعادت الحرب جذعة.

وبعد أربع سنين من اتقاد نار هذه الفتنة تقدم أبو يعقوب المزاتي في قومه ونزل حول تيهرت لإيقاف الفتنة. وسئمت الناس الحرب. فرضوا وساطته. فعقد هدنة لمدة أربعة أشهر. تقوى فيها حزب أبي حاتم. فدخل المدينة. وغادرها عمه يعقوب.

ها قد وقفنا بالقارئ على ناحية من مناحي حياة هذه الدولة في إيجاز من غير إطالة بوصف المعارك وإحصاء القتلى وذكر الأبطال.

ولا يستبعد مع هذه الفتن ما قدمنا من حديث العمران والمعارف فإن القوم كانوا أحرار. والحرية تعمل مع الفتن ما لا يعمله الاستعباد مع الأمن.

سقوط الدولة الرستمية:

تأسست الدولة الرستمية بتأسيس تيهرت سنة **144** (**761**م) وبويع مؤسسها عبد الرحمن بن رستم بالخلافة سنة **160** وسقطت في أيدي الشيعة سنة **296** (**909**م) فتكون مدتها **152** سنة قمرية (**148 شمسية**) والبكري موافق في تاريخ تأسيس الدولة وسقوطها. ولكن يقول إن مدة الرستميين كانت ثلاثين ومائة سنة.

أما أسباب سقوطها فترجع إلى افتراق كلمة الأمة واختلاف الرستميين فيما بينهم وظهور عدو قوي إلى جانبه هم الشيعة. وقد رأيت في الفصل السابق كثرة الثورات لأسباب ضعيفة واستفحال أمرها حتى أن الثائرين قد يستولون على العاصمة ويطردون منها الرستميين وذلك يدل على أن القبائل كانت ذات حرية واسعة اكتسبتها بقوتها وضعف الحكومة و لم تحسن استعمالها.

وهؤلاء الرستميون الذين لم تكن لهم قوة حربية تجعل القبائل تحت سلطانهم فعلا اخذ داء التنافس يسري إليه. وبدأ ذلك عصر أبي حاتم حيث أن عمه يعقوب خالف عليه أولا ثم خالف عليه أخوه اليقظان ثانيا وأفضى الخلاف إلى قتله وانتصاب اليقظان مكانه. وكان لأبي حاتم بنت

تدعى دوسرا قد أحرق كبدها ما نزل بأبيها. وكثير من أهل تيهرت غير راضين عن اليقظان.

فالشعب كانت تعبث باتحاد العصبيات القومية والتعصبات المذهبية. والحكومة تعبث بهيبتها المنافسات السياسية والاختلافات الداخلية. تلك حالة الدولة الرستمية في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة الشيعية بكتامة وقضت على الأغالبة.

لما قضى أبو عبد الله الشيعي على دولة الأغالبة قصد تيهرت ونزل عليها. ولم يلق في طريقه كيدا. فخرج إليه أهلها متبرئين من اليقظان وواعدين له بفتح المدينة. ثم خرج اليقظان في جمع من أهل بيته. ولقي أبا عبد الله الشيعي مسلما مسالما. وخشيت دوسرا أن يبقى عليه. فأمته مع أخ لها ووعدته نفسها زواجا أن هو ثأر لها من قتلته أبيها فأتى القتل على اليقظان ومن معه. وفرت دوسرا فلم يوقف لها على أثر. وسقطت الحكومة والأمة في يد الشيعة.

وهكذا استولى أبو عبد الله الشيعي على دولة تيهرت بكل سهولة. لأنه وجد أمة بلا حكومة وحكومة بلا أمة. وفي ذلك درس مفيد لكل حكومة أجنبية تعتمد على أجانب مثلها وتقصي أهل الوطن عن ساحة الحكم. وفي ذلك أيضا درس جليل الفائدة لكل شعب يكون قليل الانقياد لحكومته كثير الثورات عليها من غير أن يرسم لطريق جهاده خطة معينة ويلتف على زعيم قوي مرضي حسن السير به إلى غاية واضحة.

تيهرت:

تيهرت بكسر التاء بعدها ياء فهاء مفتوحة فراء ساكنة. ويقال أيضا تاهرت. وهي اسم لمدينتين أحدهما على ربوة يحيط بها سور أسست قبل الإسلام. وافتتحها القائد العظيم عقبة بن نافع. وكانت لبرقجانة. وضعف عمرانها منذ العصر الرومي. وانتعشت قليلا أيام الرستميين. وكانت تدعى تاهرت عبد الخالق وتدعى أيضا حصن ابن بخاتة. وبعد الرستميين خرب وأسس مكانها تيهرت الفرنسية المدعوة اليوم تيارت.

والثانية تيهرت الحديثة أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة **144** (**761م**) غربي القديمة على خمسة أميال منها محاذية لتاقدمت. وقد غلط بعضهم فسمى تيهرت الحديثة. تاقدمت. وموضعها كان غيضة أشبة مملوكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة. فأرادهم عبد الرحمن على البيع. فامتنعوا. فاكتراه منهم بخراج الأسواق. وشرعوا في تأسيسها. فعمرت واتسعت خطتها وطار في الآفاق صيتها حتى دعيت عراق المغرب وبلغ المغرب إلحاقا لها بهما في المعارف والعمران والحضارة.

اختار الرستميون موقعها لكونه بين قبائل أباضية وأرضها مملوكة لقوم مستضعفين ليكونوا في مأمن من هجمات المخالفين وراحة من قبيلة المالكين. فهم بضعفهم لا يطمعون في التغلب على الدولة. ولموقعها مزية لديهم أيضا وهو إشرافه على الصحراء إذ كان أغلب القوم رحالا قائمين على المواشي. ففي الصحراء يجدون حاجة ماشيتهم. والرستميون مرتبطون مذهبا بنفوسة طرابلس. وبواسطة الصحراء يمكنهم إدامة الروابط

معهم. اختطوا بهذه المدينة المنازل والقصور. وأجروا إليها المياه. قال الإدريسي: «**وبها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم يتصرفون بها**».

أصبح عمران تيهرت وعدل ايمتها حديث الرفاق تنقله إلى الآفاق. فأمها الناس من كل ناحية. قال ابن الصغير: «**واتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار. فقلما يترل بهم أحد من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بيتا بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة أمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين. واستعملت السبل إلى بلاد السودان وغيرها من البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وصنوف الأمتعة. والعمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار قابلون**».

وقال البكري: «**مدينة تيهرت مسورة لها ثلاثة أبواب[1] باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها، وهي في سفح جبل يقال له قزول (وهو بتخفيف الزاي وهكذا يدعى اليوم)، ولها قصبة مشرفة على السوق، تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجمع**

---

[1] هكذا بالأصل. وقد سمي أربعة أبواب ثم قال وغيرها. فذكر الثلاثة خطا.

تسمى تاتش، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها، وهو في شرقيها..
وهي شديد البرد كثيرة الغيوم والثلج»، قال بكر ابن حماد:

ما أخشــن البرد وريعانــه   وأطــراف الشمــس بتاهــرت
تبدو من الغيــم إذا ما بدت   كأنهــا تنشــر من تخــت
فنحن في بحــر بلا لجــة   تجري بنا الريح على السمــت
نفرح بالشمس إذا ما بدت   كفرحــة الذمــي بالسبــت

ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز فقال: أحرقي ما شئت فو الله أنك بتاهرت لذليلة!، ومسجد تاهرت الجامع أسسه عبد الرحمن وهو من أربع بلاطات، قال محمد بن يوسف: وبها أسواق عامرة وحمامات كثيرة، يسمى منها اثني عشر حماما.

ومنذ سقطت الدولة الرستمية أصبحت تيهرت نقطة عراك بين الشيعة وزناته يتغلب عليها هؤلاء تارة وأولئك أخرى. فأخذ عمرانها في التراجع. وأحرقت النار أسواقها في شوال سنة **305** كما في القرطاس. ثم كانت فتنة ابن غانية. وتكرر دخوله لتيهرت، فاحتمل أهلها وتفرقوا في البلاد، وذلك سنة **620** وكان ذلك آخر العهد بعمارتها، وأرضها اليوم تحرث، و لم يبق منها الا انقاض وبعض سورها، والأماكن تشقى وتسعد.

الباب الثالـث

في الدولة الإدريسية

تمهيد:

بينما كان بنو العباس يعملون لهدم دولة بني أمية شرقا كان البربر يعملون لذلك أيضا غربا، ولكن العباسيون يهدمون ليبنوا، والبربر يهدمون توصلا للفوضى. وما أتم بنو العباس بناء دولتهم بالمشرق حتى أتم البربر عمل فوضاهم بالمغرب. ولما أخذ العباسيون يسترجعون المغرب لسلطانهم استقل بنو رستم ببعض المغرب الأوسط وما بقي منه كان تابعا لأمراء القيروان ظاهرا ومستقلا في داخليته تحت شيوخ قبائله. ومثل ذلك المغرب الأقصى.

و لم تكن الدولة العباسية شرقا سالمة من المنافس. فإن الطالبيين نهضوا طالبين لأنفسهم الخلافة وثاروا مرارا. ولكن كان نصيبهم الإخفاق. وفي أيام موسى الهادي ظهر الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط. وثار على عامل المدينة. وتغلب عليه. وبعد أيام خرج إلى مكة. ولما بلغها انضم اليه طائفة من عبيدها. وكان الفصل فصل موسم الحج. وقد حج جماعة من وجوه بني العباس

وشيعتهم. فنشبت الحرب بين العباسيين والطالبيين ثامن ذي الحجة. فانهزم الحسين ثم قتل بفخ قريبا من مكة من طائفة من ذوي قرابته. وذلك سنة 169.

وحضر هذه الواقعة إدريس وسليمان ابنا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى. فأما سليمان فقيل نجا وقيل قتل فيمن قتل مع الحسين. وأما إدريس فنجا وايس أن يكون للطالبيين مع العباسيين بالمشرق أمر، وقد علم ما عليه المغرب من ضعف سلطان بني العباس به. فقصده. ومر بمصر. وكان صاحب بريدها إلى المغرب يتشيع. وهو واضح المعروف بالمسكين مولى لصالح بن المنصور. فحمله إلى المغرب.

وقد ساق البكري حديث نزوح إدريس إلى المغرب نقلا عن أبي الحسن النوفلي. قال: «**قال النوفلي أن إدريس ابن عبد الله انهزم فيمن انهزم من وقعة حسين صاحب فخ.. فاستتر مدة. وألح السلطان في طلبه. فخرج به راشد وكان عاقلا شجاعا أبدا ذا حزم ولطف، في جملة الحاج منحاشا عن الناس، بعد أن غير زيه والبسه مدرعة وعمامة غليظة. وصيره كالغلام يخدمه. وان أمره ونهاه أسرع في ذلك. فسلما حتى دخلا مصر ليلا. فبينما هما متحيران يمشيان في بعض طرقها لا هداية لهما بالبلد، اذ مرا بدار مشيدة يدل ظاهرها على باطنها ونعمة أهلها. فجلسا في دكان على باب الدار فرآهما صاحب الدار. فعرف فيهما الحجازية. وتوسم في خلقتهما الغربية فقال أحسبكما غريبين.**

قالا نعم. قال وأراكما مدنيين. قالا نعم. نحن كما ظننت. فإذا الرجل من موالي بني العباس. فقام اليه راشد. وقد توسم فيه الخير، فقال له يا هذا قد أردت أن ألقي إليك شيئا. ولست أفعل حتى تعطيني موثقا أن تفعل إحدى خلتين إما أويتنا وتتقرب إلى الله بالإحسان إلينا وحفظت فينا نبيك محمدا (صلعم)، وان كرهت ما ألقيته إليك سترته علينا. فأعطاه على ذلك موثقا. فقال له هذا إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه مع حسين بن علي. فسلم من القتل. وقد جئت به أريد بلاد البربر. فإنه بلد ناء لعله يأمن فيه ويعجز من يطلبه. فأدخلهما منزله. وسترهما حتى تهيأ خروج رفقة إلى افريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما. فلما عزم القوم الشخوص قال لهما إن لأمير مصر مسالح لا يجوز أحد إلا فتشوه وههنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس. فأنا أحمل هذا الفتى معي، يعني أدريس، في هذه الطريق الغامضة البعيدة. فالقاك به، يقول راشد، في موضع كذا. وهنالك تنقطع مسالح مصر. فركب راشد في أحد شقي المحمل. ووضع متاعه في الشق الآخر. ومضى مع الناس في القافلة. وخرج الرجل على فرس له. وحمل إدريس على فرس أخرى. فمضى به في الطريق الغامضة، وهي مسيرة أيام، حتى تقدما الرفقة. وأقاما ينتظارانها حتى وردت. فركب إدريس مع راشد حتى إذا قربا من افريقية تركا دخولها. وسارا في بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة».

هذا حديث البكري. ومراده بافريقية القيروان. وصاحبها يومئذ من قبل العباسيين روح بن حاتم، وفي الاستقصاء: ان إدريس دخل القيروان وأقام بها مدة. ثم خرج هو وراشد حتى أتيا تلمسان. فأراحا بها أياما. ثم ارتحلا نحو طنجة. فعبرا وادي ملوية. ودخلا بلاد السوس الأدنى. وتقدما إلى مدينة طنجة. ونحوه في القرطاس لابن أبي زرع.

ومن طنجة خرج إدريس ومولاه راشد إلى مدينة وليلى. فنزلا على صاحبها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي. فأكرم مثولهما. وعرفه إدريس بنفسه فبالغ في إكرامه وخدمته. وكان نزولهما بوليلي غرة ربيع الأول سنة **172**.

قال ابن آبي زرع: «**ومدينة وليلي قاعدة جبل زرهون. وكانت مدينة متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون. وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل**». قال السلوى: «**يقال إنها المسماة اليوم بقصر فرعون**».

تأسيس الدولة الادريسية:

كان اسحق الأوروبي أمير قومه. ولما نزل عليه إدريس عرفه بنفسه وكاشفه بسره وأنه يريد أن يؤسس للطالبيين بالمغرب ما عجزوا عليه بالمشرق. فأجابه اسحق إلى ما أراد. ولما كان شهر رمضان جمع عشيرته وعرفهم بإدريس. وقرر لهم عمله وفضله ودينه. وعرض عليهم مبايعته،

فأجابوه وبايعوه على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم. وبعد البيعة قام إدريس خطيبا. فقال: «**أيها الناس لاتمدن الأعناق إلى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لاتجدونه عند غيرنا**».

بايعت أوروبة وتلتها مغيلة وصدينة من بني فاتن. ثم وفدت عليه للبيعة قبائل زواغة وغياثة ومكناسة وغمارة في قبائل أخر من زناتة وغيرهم، فلم يلبث أن جهز الجيوش من أوروبة وزناتة وهوارة وصنهاجة وغيرها. وقصد بها تامسنا وتادلا من البلاد الواقعة جنوب وليلي إلى ناحية المحيط الغربي. وكان أكثر أهلها على اليهودية والمسيحية والوثنية. والإسلام فيهم قليل. فغزاهم إدريس وفتح حصونهم فاسلموا جميعا. وعاد مؤيدا منصورا فدخل وليلي أواخر ذي الحجة من سنة **172**.

بيسما كان إدريس يخشى أقل الناس ان يعرف مكانه فينم به إلى أي وال عباسي فيريق دمه إذا به يؤسس دولة في غير وطنه ويغزو في غير قومه. كل ذلك كان في ظرف أشهر!

لقد فر قبله من بني العباس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي. ونزل الأندلس. و لم يقف عند حد الأمن على حياته بل كون تلك الدولة الراقية التي أضاءت على أروبا ثم غربت في حمئة حضارتها. ودعاه ابو جعفر المنصور «**صقر قريش**» وأمره ـ وإن كان عجيبا ـ يقر به أن له سلفا في الملك ولقومه بني أمية عصبية من العرب قوية وقد فتحت

الأندلس بقواد جدوده وجيوشهم. وفر كذلك من بني العباس عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط. وأسس به دولة من قوم لا يتصلون من نسبه بسبب. ولكن يسهل أمره أيضا اتحاده مع أولئك القوم مذهبا وقد عرفوه قبل أيام أمامهم أبي الخطاب وعرفوا منزلته لديه. أما إدريس فشأنه أعجب إذ ليس له مع البربر أي سبب، وليس أمره مما تنتجه المصادفات أو يرتفع عن مدارك العقول.

إدريس إنما قصد المغرب لعلمه بانحراف أهله عن بني العباس وبعده عن مركز خلافاتهم. ولكن هل قصده لمجرد النجاة بنفسه؟ إذن فلم أوغل في المغرب؟ أما كان يكفيه أن يدس نفسه في قبيلة غير خاضعة لولاة القيروان؟.

إدريس أكبر نفسا من ان يفر هذا الفرار إلى مكان سحيق طلبا للحياة الشخصية. وهو أنبه قدرا من ان يرضى بالخمول وهو أشرف نسبا من أن يدمج نفسه في البربر. وأرى أنه إنما قصد المغرب إظهارا للدعوة الطالبية ورجاء في تأسيس دولة علوية إذ ايس من ذلك بالمشرق وانقطعت ثقته بالعرب. وقد رأى العباسيين انتصروا بالفرس فبحث عن شيعة له من البربر.

وقد كان البربر يرتحلون إلى المشرق طلبا للعلم وأداء لفريضة الحج ثم يعودون وقد حملوا معهم صورا من نزاعات المشرق السياسية ونزعاته الدينية. وكان من المذاهب الدينية مذهب الزيدية من الشيعة. وهو مذهب إدريس، ومن التزاعات السياسية نزاع العباسيين والطالبيين وكان البربر

يتأثرون بكل ما يجري بالمشرق فيجري بوطنهم من الانقسام السياسي والاختلاف الديني مثل ما يجري بالمشرق. فلا بد ان يكون البربر قد عرفوا المذهب الزيدي ولا بد أن يكون منهم من بلغته أحاديث اضطهادات العباسيين للعلويين الفاطميين فود لو يتقرب إلى الله بنصره آل بيت رسوله ويحميهم من أعدائهم.

ولعل إدريس قد بحث في المغرب عمن يجدهم متشيعين لآل البيت. ومن أجل ذلك تنقل في الحواضر والبوادي حتى خبر حال صاحب وليلي ورأى فيه ضالته المنشودة. فترل عليه وباح له بسره. فلباه وصدق ظنه وجد في نشر دعوته.

هكذا تأسست دولة إدريس بسهولة وبساطة هيأهما القرابة من رسول الله (**صلعم**) ونفرة البربر من بني العباس المعتمدين في سلطاهم على الفرس. فنصر البربر العلويين عن طواعية. وحاربوا معهم في بقية البربر غير المسلمين وأدخلوهم في الإسلام فتقووا هم ثم لووا عنان قوتهم لحرب الخوارج بالمغربين الأقصى والأوسط فاخرجوا منهم دولة علوية.

وما زالت مدينة وليلى قاعدة دولة إدريس حتى توفي. وخلفه ابنه إدريس فعظمت دولته وكثرت غاشيته حتى ضاقت عنهم وليلى. فخرج يرتاد مكانا يتسع لدولته ما اتسعت. فأسس مدينة فاس. وأصبحت إحدى العواصم الإسلامية الكبرى ولم تزل فاس قاعدة الادارسة حتى انقرضت دولتهم.

الحكومة الإدريسية:

الدولة الإدريسية مستقلة استقلالا تاما. وحكومتها كسائر الحكومات الإسلامية يومئذ قضاء وإدارة. إنما تخالفها في كونها حكومة غير مركزية. فكل عامل من الادارسة وإخوانهم العلويين مستقل بإدارة عمله وجباية الخراج وإشهار الحرب. وإنما يمتاز الإمام بذكر اسمه في السكة والخطبة.

اقتضى هذا النظام طبيعة الوطن الذي يكره أهله الحكومة المركزية. فلهذا عهد إدريس لإبن عمه محمد ابن سليمان على المغرب الاوسط. وأشارت أمه كنزة البربرية على حافدها محمد بن إدريس لما ولي بعد أبيه بتقسيم المملكة بين أخوته.

ومبني سياسة الحكومة الخارجية عدم الاعتراف ببقية الدول الإسلامية. ولكن صدها عن العمل لإخضاعهن ذلك النظام الداخلي الذي اضطرت إليه وتركها فقيرة من المال والرجال. فاكتفت بما تحت نفوذها. واصطلحت مع الأغلبية ولم تهج بني أمية.

وكانت تضرب السكة باسم الإمام. وانتشرت سكتها بالمغرب. حتى ان زيادة الله الأول بعث منها إلى المأمون لما أرسل له بالدعاء على منابر افريقية لعبد الله بن طاهر، تعريضا بتحويل الدعوة إلى الادارسة. وهذا يرشد إلى ما كان لهذه الحكومة من النفوذ الأدبي. فإن حكومة الأغالبة أغنى منها رجالا وأموالا ولم تطمع في الاستقلال ولم يأنف أميرها لما غضب من الدخول في دعوتها.

وكان أيمة الادارسة أهل عدل ورفق بالرعية وسهر على أمنها. قال ابن أبي زرع: «**فكثرت الخيرات بفاس وظهرت البركات. ورخصت الأسعار، فبلغ وسق القمح درهمين ووسق الشعير درهما والكبش درهما ونصفا والبقرة أربعة دراهم والعسل خمسة وعشرون رطلا بدرهم والقطاني والفاكهة لا قيمة لها. دام ذلك خمسين سنة منذ أيام إدريس بن إدريس**». وظاهر أن العاصمة تكون بها أمثال هذه المواد أغلى غالبا منها في الأعمال التابعة لها.

وقد حدثت أواخر الدولة فتن غيرت مجرى هذا الرخاء. فقد قام عبد الرزاق رئيس الصفرية بمديونة وجمع جموعا عظيمة استولى بها على فاس حتى أخرجه الإمام يحي بن القاسم وشغل مدة إمامته بحروب الصفرية وولي بعده يحي بن إدريس بن عمر وكان شجاعا حازما فقيها محدثا فصيحا ورعا صالحا أكثر الادارسة عدلا وأغزرهم فضلا وأعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا ولكن مني بالدولة العبيدية التي نصرتها مكناسة وكبيرها موسى بن أبي العافية. فدخلوا عليها فاسا سنة **305** ولم يسعه إلا مبايعتهم. ثم نكبه ابن أبي العافية سنة **309** وأخرجه عن فاس. وسجنه سنين ثم سرحه. فقصد المشرق. ومات بافريقية سنة **332** جائعا غريبا!

واستولى من بعدة الحسن بن محمد بن القاسم على فاس سنة **310** وحارب موسى. فغلبه عليها بعد سنة. ونكبه ومات منكوبا سنة **313**.

وقد كان عدد الادارسة كثيرا. ولكن لم يكن بينهم نزاع على الإمامة. ولشهرة أيمتهم في كتب التاريخ وكون مركزهم وأهم آثارهم خارج الجزائر موضوع كتابنا نكتفي عن التعريف بهم برسم جدول لبيان مدهم.

الإمام	الولاية المجرة	الولاية للميلاد	النهاية للهجرة	النهاية للميلاد	ملاحظات
إدريس بن عبد الله	172	788	177	793	قتل مسموما تركه
ابنه إدريس	188	804	213	828	ابوه حملا
ابنه محمد	213	828	221	835	
لبنه علي ابنه	221	835	234	848	ايامه اسس بجامع
اخوه يحي بن محمد	234	848			القرويين 245
ابنه يحي بن يحي					مات من مكيدة
ابن عمه علي بن عمر بن إدريس					يهودية طرده عبد
ابن عمه يحي بن القاسم ابن إدريس			292	904	الرزاق الصفري
يحي بن إدريس بن عمر ابن إدريس	292	904	309	921	
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	310	922	311	923	

العلويون بالمغرب الاوسط:

كان المغرب الاوسط لزناتة. وسيادتها لقبيلتين منها هما مغراوة ويفرن. وموطنهما نواحي تلمسان إلى وهران إلى شلف شمالا وغريس من ناحية المعسكر جنوبا. ورئاسة مغراوة كانت صدر الإسلام لصولات بن وزمار ثم ابنه حفص، وكان من أعظم ملوك زناتة، وخلفه ابنه خزر،

ولعهده كان المغرب ثائرا على بني أمية، فاعتز بقومه، وعظم شأنه، وهلك في بداية الدولة العباسية، فخلفه ابنه محمد، وعلى عهده ظهر إدريس.

لما أسس إدريس دولته بالمغرب الأقصى توجه نحو المغرب الاوسط كي يفتح لدولته طريقا إلى المشرق وما زال المشرق حتى اليوم قبلة آمال الدول وميدان تطاحن الأقوياء منها. فزحف منتصف رجب سنة **173** في جموع مطغرة وغيرهم. ونزل على تلمسان. وصاحبها يومئذ محمد بن خزر. فأطاعه وسلم له المدينة. فدخلها من غير حرب. وأقام بها أشهرا. بنى بها المسجد الأعظم. وكتب على منبره: «**بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم. وذلك في صفر سنة 174**». قال ابن خلدون: «**ولم يزل اسمه محفوظا في صفح المنبر لهذا العهد**».

أخذت زناتة بدعوة إدريس وتبعتها مغيلة. وحاربوا لها الرستميين وغيرهم. وقامت قيامة هرون الرشيد لما بلغه خبره. وقال: «**تلمسان باب افريقية. ومن ملك الباب يوشك ان يلج الدار**». فأوعز إلى أمراء القيروان بحربه. فحاربه روح بن حاتم من غير طائل وهم بعده الفضل ابن روح بحرب المغرب الإدريسي. فلم يطعه الجند. وكثر تمرد الجند على الأمراء. واستشار الرشيد وزيره يحي البرمكي. فأشار عيه بارسال داهية يتحيل في اغتيال إدريس. فاختار الشماخ الذي تحيل حتى توصل إلى سم إدريس. «**ورب حيلة أنفع من قبيلة**».

ولحق بإدريس أخوه سليمان. وكان ممن حضر وقعة فخ ونجا على الصحيح. قال البكري: «**قال علي النوفلي أخبرني عيسى بن جنون قاضي ارشقول لادريس بن عيسى (من بني سليمان)، ودخل الأندلس غازيا، ان سليمان بن عبد الله دخل المغرب أيضا. ونزل تلمسان**». وقال ابن خلدون: «**لحق سليمان بجهات تاهرت بعد مهلك إدريس. فطلب الأمر هنالك واستنكره البرابرة. وطلبه ولاة الأغالبة. فكان في طلبهم تصحيح (لدى البربر) ولحق بتلمسان. فملكها وأذعنت له زناته وسائر قبائل البربر هناك**».

ولما هلك سليمان خلفه ابنه محمد. وكبر ابن عمه إدريس الأصغر. فاتصلت أيديهما. ونهض إدريس إلى تلمسان سنة **199** وحارب المخالفين عليه من نفزة وبقية الصفرية. وبلغ شلفا وما وراءه إلى بلاد صنهاجة. وألفى جامع والده قد انصدع فرممه. وأصلح منبره. نقل ابن أبي زرع عن عبد الملك الوراق أنه قال: «**دخلت تلمسان سنة 255 فرايت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هناك مكتوبا فيه: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة 199**».

أقام إدريس بتلمسان ثلاث سنوات. ثم اصطلح مع ابن الأغلب وعينت الحدود بينهما بوادي شلف. وعقد على المغرب الاوسط لإبن عمه محمد بن سليمان. وكر راجعا إلى عاصمته. واستقر محمد بعين

الحوت من ناحية تلمسان. وتوفي بجبل وهران. وترك أبناء اقتسموا مملكته. وسنفرد لممالكهم فصلا.

وأفلت من وقعة فخ أيضا داوود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولحق ببني عمه بالمغرب. وحضر مع إدريس الأصغر بعض وقائعه مع الخوارج. قال البكري: «**وانصرف داوود إلى المشرق. وبقيت ذريته بفاس. وبنو إدريس يناكحونهم**».

ومن بني جعفر هذا أخي عبد الله الكامل رجال نزلوا متيجة وملكوها.

ولحق بالمغرب أيضا من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ونزل مدينة هاز القريبة من المسيلة. وكانت له من تلك الجهات مملكة. قال البكري: «**وكان له من البنين حمزة وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم. وكلهم أعقب وعقبهم هناك**».

وإذا نظرنا إلى الممالك العلوية من بني محمد بن سليمان وبني جعفر وبني الحسن الفروع الثلاثة التي نزلت المغرب الأوسط وجدناها تمتد على السواحل من أرض الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا. وغرضنا الآن معرفة مملكتي هاز ومتيجة.

1- مملكة هاز:

تمتد من ناحية البويرة على مقربة من جبال جرجرة إلى نواحي زاغز الشرقي على نواحي قصر البخاري فتشتمل على سهل حمزة الفسيح. وبهذه الجهة من القرى اليوم عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى وغيرها.

وسمي سهل حمزة بحمزة بن الحسن صاحب هاز. والبويرة كانت تسمى سوق حمزة لأنه الباني لها. قال البكري: «**وسوق حمزة مدينة عليها سور وخندق. وبها آبار عذبة. وهي لصنهاجة. نزلها حمزة بن الحسن وبناها**».

واستمرت مملكة هاز لبني الحسن حتى ظهرت دعوة الشيعة وأخذ بها زيري بن مناد الصنهاجي. فأجلب على مدينة هاز وخربها. وفي أيام المعز بن المنصور أجلب قائده جوهر على هذه المملكة وقضى عليها قال ابن خلدون: «**وحمل بني حمزة منهم إلى القيروان. وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون هناك عند البربر**».

ومدينة هاز ذكرها البكري فيما بين المسيلة وتاهرت. قال: «**مدينة هاز على نهر شتوي. وهي خالية أجلى أهلها زيري بن مناد الصنهاجي، ومنها إلى بورة على نهر جار يسكن حوله بنو يرناتن. وهم كانوا أصحاب هاز. وبورة كثيرة العقارب. وبها سويقة. ومنها إلى حصن موزية. وبقرب هذا الحصن قصر من بنيان الأول بالصخر يعرف بقصر**

العطش حوله ماء ملح ومدينة عظيمة للأول أيضا خالية مبنية بالصخر يعرف بالجليل تسمى مدينة الرمانة تنفجر تحتها عيون ثرة طيبة تسيل إلى المسيلة ومدينة للأول أيضا خالية تسمى بالبربرية تاورست تفسيره الحمراء وهي مبنية بالصخر على نهر عذب. ومن حصن موزية إلى مدينة المسيلة».

وقال اليعقوبي ان سكان مدينة هاز هم بنو يرنيان من زناتة خلال قول البكري أنهم بنو يرناتن.

وذكر الإدريسي مدينة هاز بين المسيلة وأشير فقال: «**ومن أشير زيري إلى قرية سعيد مرحلة. وبها عين ماء جارية. ومنها إلى قرية هاز في فحص رمل مرحلة وبها عيون مياه. وقد خربت. ومنها إلى المسيلة مرحلة**» وبورة بكسر الواو. تدعى اليوم بورة الصحاري قريبة من شط زاغر الشرقي. وهاز بينها وبين أشير. فتكون نواحي عين بوسيف.

2- مملكة متيجة:

متيجة سهل فسيح قرب مدينة الجزائر. يفصل بينه وبين سهل حمزة جبال تيطري. قال اليعقوبي: «**وهو بلد زرع وعمارة واسع فيه عدة مدن وحصون. تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي ابن أبي طالب. يقال لهم بنو محمد بن جعفر**». ولم نعلم أكثر من هذا عن أصحاب هذه المملكة. ولكن من الضروري أنهم سلكوا سبيل أخوانهم بعد ظهور الشيعة.

وسهل متيجة سمي بمدينته التي كانت فيه. ويقال لها أيضا قزرونة. وتدعى اليوم البليدة. قال البكري: «ومن المدية إلى قزرونة وهي مدينة على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين. ويقال لها متيجة. ولها مزارع ومسارح. وهي أكثر تلك النواحي كتانا. ومنها يحمل. وفيها عيون سائحة وطواحين ماء. ومنها إلى مدينة آغزر ومنها إلى مدينة جزائر بني مزغني».

ممالك بني محمد بن سلميان:

نقل ابن خلدون عن ابن حزم: «إن بني محمد بن سليمان بالمغرب كثير جدا. وكان لهم به ممالك. وقد بطل جميعها ولم يبق منهم بها رئيس».

وقد بين اليعقوبي هذه الممالك فقال: «متيجة مدينة مذكرة فيها ولد محمد بن سليمان. ومدينة الخضراء. ويتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع. يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية. وعددهم كثير حتى ان البلد يعرف بهم وينسب اليهم. وآخر المدن التي في أيديهم سوق ابراهيم. وهي المدينة المشهورة. فيها رجل يقال له عيسى ابن ابراهيم بن محمد بن سليمان. ثم من هذه إلى تاهرت»..

«ثم من مملكة ابن مسالة الهواري إلى مملكة لبني محمد بن سليمان أيضا. ومسكنهم في المدينة العظمى تمطلاس. وأهل هذه المملكة من قبائل البربر المتعددة أكثرهم مطماطة. وهم بطون كثيرة، ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يقال لها أبروح[1] بها بعضهم (يعني بني محمد) وأهلها مطماطة، ومدينة أيضا يملكها رجل منهم (بني محمد) يقال له عبد الله، تسمي المدينة الحسنة إذا فسرت من لسان البربر إلى العربية».

«ثم إلى المدينة العظمى المشهورة تلمسان، ينزلها منهم محمد ابن القاسم بن محمد بن سليمان، ثم مدينة العلويين، كانت لولد محمد بن سليمان، ثم تركوها، فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي، ثم منها إلى مدينة يقال لها نمالتة[2] فيها محمد بن علي بن محمد بن سليمان، وآخر مملكة بني محمد مدينة فالوسن وتليهم مملكة صالح بن سعيد الحميري».

مملكة صالح بن سعيد هي بلد نكور من وطن الريف على البحر في غربيها مرسى بادس، فتكون ممالك بني محمد بن سليمان تمتد من هناك غربي مدينة مليلة وتذهب مساحلة مشرقة إلى أن تنقطع نواحي مستغانم بإمارة هوارة، ثم تعود بناحية تنس وتذهب جنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة.

---

[1] كذا غير معجمة. ولم نهتد إلى لفظها.

[2] ذكرها الادريسي بلفظ تمالة. فقال: من فاس إلى نهر سبو. ويمر الطريق منه إلى تمالة مرحلة. وهي قبل وادي ملوية غربا. وذكر ابن خلدون في بطون زناتة نمالة. ولم يعين موطنهم.

وذكر التنسي وغيره أن محمد بن سلميان ترك من الأبناء أحمد وعيسى وإدريس وعليا وإبراهيم وحسنا وعبيد الله وعبد الله العالم المحدث، وظاهر اليعقوبي ان منهم القاسم الذي خلفه ابنه محمد بتلمسان، وابن خلدون والتنسي وغيرهما يقولون ان الذي كان بتلمسان من ابناء محمد هو أحمد وهو ولي عهده، فخلفه بها بعد وفاته، ثم توفي احمد فخلفه ابنه محمد، ثم خلف محمدا ابنه القاسم، وعليه انقرض ملك هذا الفرع.

وعلي ظاهر اليعقوبي انه كان بمدينة ثمالتة، وخلفه بها ابنه محمد، ولم نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا.

وعيسى كان بأرشقول، وطالت مدته إلى أن توفي سنة **295** فخلفه ابنه ابراهيم، ويعرف بالارشقولي، ثم يحيى بن ابراهيم، ثم اخوه إدريس بن ابراهيم، وظهرت عليه دولة العبيديين.

قال البكري: «**وكان لأبي العيش ومن خلفه مدينة تلمسان أيضا وما والاها**». فيظهر ان استولى على عمل ابناء عمه احمد قبل ظهور العبيديين، ومدح أبا العيش بكر بن حماد التاهرتي، قال من كلمة طويلة:

سائل زواغة عن فعال سيوفه ... ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها ... والخيل تمرغ بالوشيج الذبل
عمت مغيلة بالسيوف مذلة ... وسقى جرواة من نقيع الحنظل

وهذه القبائل كانت مساكنها هنالك.

وإبراهيم ظاهر اليعقوبي انه كان بسوق ابراهيم، وخلفه بها ابنه عيسى، فتكون المدينة منسوبة إليه، وقال غيره: «**كان ابراهيم بتنس وخلفه ابنه محمد ثم يحيى بن محمد ثم علي بن يحيى، ولإبراهيم ولد آخر يدعى عيسى كان مع أخيه محمد بتنس، ومن ولده ابراهيم المنسوب اليه سوق ابراهيم**»، وما لليعقوبي هو الظاهر لان سوق ابراهيم كانت أعمر من تنس.

وحسن. قال التنسي كان بتاهرت، وظاهر انه أراد ناحيتها، ولانعلم أي مدينة كان فيها، وخلفه ابنه حناش ثم بطاش بن حناش، ولا نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا كما أنا لم نعلم شيئا عن الأخوين الباقيين وهما عبيد الله وعبد الله.

وقد رأينا ان نشرح من حال المدن السابقة مما عثرنا عليه ما يبين الموقع والأهمية تاركين الحديث عن المراسي الممتدة شمال هذه الممالك مثل وهران وعين فروج وقصر الفلوس لكثرتها وطول الحديث عنها،فأما مدكرة فلم نجد لها ذكرا ولا ما يقارب لفظها غير كلمة زكار اسم جبل مليانة فإن لم تكن مذكرة هي مليانة فقريبة منها، قال البكري:

«**تسيير من سوق كرام إلى مليانة، وهي مدينة رومية فيها آثار وهي ذات أشجار وانهار تطحن عليها الارحاء، جددها زيري بن مناد واسكنها ابنه بلقيـــن (خليفة العبيديين بالقيروان) وهي عامرة، ومنها إلى مدينة الخضراء، وهي مدينة كبيرة على نهر خرار عليه الارحاء،**

وإذا حمل دخل المدينة، وحولها بساتين كثيرة، ويكتنفها من قبائل البربر مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن، و منها إلى مدينة بني واريفن، وهي قديمة، لمطغرة، على نهر شلف، بها حوانيت،و حولها مسارح واسعة كثيرة الكلأ، ومنها إلى مدينة قارية، وهي مدينة لطيفة ذات أعين كثيرة وهي في سفح جبل. ومنها إلى مدينة تنس».

هذه طريق أشير إلى تنس. وهناك طريق أخرى قال فيها البكري: **«وإن أردت طريق الساحل من تنس إلى أشير زيري فمن تنس إلى بني جليداسن مدينة لطيفة لمطغرة يسكنها الأندلسيون والقرويون ولا يدخلها برقجاني من وقت غدرهم بها وهي بلدة طيبة بها عيون عذبه. وهي مطلة على فحص شلف. وهناك مدينة شلف على نهر بها سوق عامرة. تعرف بشلف بني وأطيل لزواغة. ومنها إلى بني واريفن».**

وذكر طريقا أخرى بين القيروان وتنس. فقال: **«من القيروان إلى مدينة الغزة على ما تقدم. ثم منها إلى مدينة تاجنة، وهي مدينة سهلية آهلة عليها سور، وبها جامع، سكانها برقجانة. وحولها كزناية، ومنها إلى تنس».**

ومدينة الغزة هي المعروفة اليوم بغليزان. وتاجنة هي التي سماها الإدريسي بلدة التين لكثرة شجره بها. وذكرها على مرحلة من تنس. وذكر سوق ابراهيم متوسطة بين الغزة وبلدة التين. وسوق ابراهيم حيث مصب نهر اسلي في شلف.

وتنس هي قرطنة الفينيقية، وقد خربت قديما. وانتقلت العمارة إلى تنس الحديثة. قال البكري: «**بينها وبين البحر ميلان. وهي مسورة حصينة. داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى. ينفرد بسكانها العمال لحصانتها. وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة. وهي على نهر يسمى تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم. يأتيها من القبلة. ويستدير بها من جهة الجوف والشرق. ويريق في البحر. وبها حمامات**».

وهذه تنس الحديثة أسسها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركرني وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم. وذلك سنة **262** ويسكنها من أهل الأندلس أهل البيرة وأهل تدمير. وأصحاب تنس من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي(ض).

«وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هنالك، إذا سافروا من الأندلس، في مرسى على ساحل البحر، فتجمع اليهم بربر ذلك الفطر ورغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى،ووعدهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة، فأجابوهم وانتقلوا إلى القلعة، وخيموا بها، وانتقل اليهم من جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم، فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبؤا الموضع، فركب البحريون الأندلسيون مراكبهم واظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون، فنزلوا مرية بجاية وتغلبوا عليها».

«ثم إن الباقين في تنس لم يزالوا في تزايد ثروة وعدد، ورحل اليهم أهل سوق ابراهيم، وكانوا في اربعماية بيت، فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم، وتعاونوا على البنيان. واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم».

«ولها بابان إلى القبلة وباب البحر. وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقي يخرج منه إلى عين تعرف بعين عبد السلام ثرة عذبة».

ومدينة العلويين ذكرها الإدريسي في طريق فاس على مرحلة من تلمسان. قال: «وهي قرية كبيرة على نهر يأتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة».

ومدينة ترنانا وسط بين مدينتي جراوة وتلمسان، قال البكري: «وهي مدينة مسورة، ولها سوق ومسجد جامع، وبساتين كثيرة. وبينها وبين ندرومة ثمانية أميال».

وارشقول مؤسسة مكان صيغة القديمة، قال البكري: «وهي على نهر تافنا يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها تدخل منه إلى المدينة السفن اللطاف من البحر. وبينهما ميلان، وهي مسورة وبها جامع حسن فيه سبعة بلاطات، وفي صحنه جب كبير، وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان احدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح غربي وباب الأمير قبلي وباب مرنيسة شرقي، محنية كلها عليها منافس، وسعة سورها ثمانية أشبار، وامنع جهاتها جوفيها، وبها آبار عذبة لاتغور. تقوم بأهلها

ومواشيهم، ولها ربض من جهة القبلة، ويقابلها جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشقول، بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير في سكون البحر، وهي مستطيلة من القبلة إلى الجوف عالية منيفة».

وجراوة سميت باسم قبيلة بربرية من زناتة كانت هناك، وهي على ستة أميال من البحر وعلى مرحلة من وادي ملوية إلى ناحية تلمسان قال البكري: «وهي في سهل من الأرض كان عليها سور مبني بالطوب، وداخلها قصبة، وحولها أرباض من جميع جهاتها وعيون ملحة وداخلها آبار عذبة وخمس حمامات احدها ينسب إلى عمرو بن العاص، وجامع من خمسة بلاطات على عمدة حجارة. وأسسها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة 259 وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي، وحواليها بسائط عريضة للزرع والضرع وعدة قرى لقبائل من البربر: مطغرة وبني يفرن وودانة ويغمر الجبل وبني راسين وبني باداسن وبني ورميش وغيرهم. ولجراوة مرسى تافرجينت. وجبل مما لوا قبلي المدينة به حصن بناه الحسن ابن أبي العيش. حواليه بساتين ومياه تطرد. وبينه وبين جراوة أربعة أميال ويتصل بالحصن أسفل الجبل شعاري اشبة لاتسلك» اهـ ببعض تصرف.

سقوط الدولة الادريسة:

تأسست الدولة الادريسية سنة **172** (**788**م) وانتهت بالقبض على الحسن الحجام سنة **311** (**923**م) فكانت مدتها **139** سنة قمرية ومملكة الادارسة واسعة النطاق تشتمل على المغرب الأقصى أجمع وبعض المغرب الاوسط. وبها حصون طبيعية ومعاقل ممتنعة. ولكن سهل سقوطها في يد العبيديين اشتمالها على ضعفين سياسي واداري.

ذلك ان الادارسة بقوا تلك المدة في الملك من غير مزاحم ولم يعتنوا بتهذيب البربر تهذيبا يحبب اليهم النظام ويكره اليهم الفوضى. بل ان البربر لم يزالوا على حالهم يتشوقون لمن يقودهم إلى الثورة عسى أن يقضوا بعض الزمان في الفوضى فما كادت تظهر دعوة العبيديين حتى هرعوا إليها. ولقبيلة مكناسة وأميرها موسى بن أبي العافية اليد الطولى في إعانة العبيديين على الادريسيين.

وكان النظام الإداري على ما علمت قد فكك وحدة الدولة الحربية وذهب بقوتها المالية. فلم تجد ما تدافع به ذلك الخطب الداهم. ولانفصال أعمال المملكة بعضها عن بعض إداريا لم تسقط كل الأعمال بسقوط فاس. فان الجزائر العلوية بقيت بعدها مدة.

لما ظهرت دعوة العبيديين بالمغرب وقضت على الدعوة الادريسية زاحمتها الدعوة الأموية فافتتح عبد الرحمن الناصر مليلة سنة **314** وبث دعاته بالمغرب. فلباه إدريس بن ابراهيم صاحب أرشقول. وكاتبه وأهدى اليه. واقتفي أثره في ذلك الحسن بن أبي العيش صاحب جراوة وموسى

بن أبي العافية ومحمد بن خزر المغراوي فنازلتهم جيوش العبيديين. فخضع لهم صاحب جراوة وموسى بن أبي العافية ومحمد بن خزر المغراوي. ونضع لهم صاحبا جراوة وأرشقول خضوع من عجز عن المقاومة. وكلف الناصر بحربهما موسى بن أبي العافية. فوقعا بين قوتين أوجبتا تلونهما في السياسة.

في سنة **315** بعث عبيد الله المهدي ابنه أبا القاسم لإخضاع المغرب. فافتتح بلد نكور. ونازل الحسن صاحب جراوة وضيق عليه وفي سنة **319** زحف موسى بن أبي العافية بدعوة العبيديين إلى تلمسان وغلب عليها الحسن. قال ابن خلدون: «**ففر عنها إلى مليلة. وبني حصنا لامتناعه بناحية نكور. فحاصره (موسى) مدة ثم عقد له سلما على حصنه**» قال السلوي: «**وكان عقد السلم في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة**». وفي هذه السنة أخذ موسى بدعوة الناصر الأموي.

وفي سنة **33** جهز أبو القاسم بن المهدي عسكرين احدهما إلى فاس بقيادة ميسور الخصي. والآخر أرسله مددا لميسور بقيادة صندل الفتى الأسود. قال البكري: «**فخرج صندل من المهدية في جمادى الأخيرة سنة 323 فوصل جراوة الحسن بن أبي العيش فاستراح بها أياما**». وقال ابن خلدون: ان صندلا حاصر جراوة. فعلى روايته يكون الحسن غير خاضع للعبيديين يومئذ. وعلى رواية البكري يكون خاضعا لهم. وهي أصوب.

ولما افتتح ميسور فاسا حارب ابن أبي العافية وهزمه. وقفل إلى القيروان. فعرج على ارشقول. وخرج اليه صاحبها إدريس ابن ابراهيم ملاطفا له بالتحف فاستراب به. وتقبض عليه واصطلم نعمته. كذا في ابن خلدون. وفي البكري ان المتقبض عليه أخوه يحيى. قال ابن خلدون: وولي مكانه أبا العيش بن عيسى منهم. والظاهر ان في العبارة حذفا وتحريفا. وصوابها: وولي مكانه الحسن ابن أبي العيش عيسى. وهذا الحسن هو صاحب جراوة. وقد كان يومئذ آخذا بدعوة العبيديين. فلعلهم أضافوا اليه ارشقول أيضا.

ولما عاد ميسور إلى افريقية رجع موسى بن أبي العافية للإغارة على أعمال العبيديين. قال ابن خلدون: «**وزحف إلى تلمسان. ففر عنها أبو العيش. واعتصم بارشقول. فنازله وغلبه سنة 25 ولحق أبو العيش بنكور. واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه... ثم سرح (موسى) ابنه مدين في العساكر. فحاصر ابا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها**». **ولفظ أبي العباس وأبي العيش محرفان. وصوابهما الحسن بن أبي العيش. وتلك القلعة هي الحصن الذي تقدم ان الحسن بناه بناحية نكور. وهو الحصن الذي ذكره البكري بجبل ممالوا. قال البكري: «وفي الحصن المذكور اسر البوري بن موسى بن أبي العافية الحسن بن أبي العيش سنة 338 وكان قد انتقل اليه من جراوة بأهله وماله وولده»**. ويؤيد اتحاد الحصن وصاحبه قول ابن خلدون في أخبار

الادارسة: «لما أخذ ابن أبي العافية بدعوة الأموية نابذ أولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن أبي العيش وغلبه على جراوة. فلحق بابن عمه إدريس بن ابراهيم صاحب ارشقول ثم حاصرها البوري بن موسى بن أبي العافية. وغلب عليهما. وبعث بهما إلى الناصر. فأسكنهما قرطبة».

ولما ذكر البكري جزيرة أرشقول قال: «واليها لجأ الحسن بن عيسى أبي العيش صاحب جراوة وتخلى مما كان بيده لما غلبه على ذلك موسى بن أبي العافية... فكتب موسى إلى صاحب الأندلس عبد الرحمن الناصر يسأله نصرته عليه ويقرب له المأخذ... فأمر عبد الرحمن أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبا حربية. ثم جهزها بالرجال والسلاح والازودة والأموال. فأحاطت بهذه الجزيرة. وقتلوا كثيرا ممن كان فيها وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشا لما نفذت مياه جبابهم حتى تداركهم الله بغيث وابل فلم يطمع فيهم أهل الأسطول حين سقوا وانصرفوا قافلين فوصلوا إلى المرية في شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة. ثم ظفر البوري بن موسى بن أبي العافية بالحسن بن عيسى الذي لجأ إلى أرشقول وبعث به إلى عبد الرحمن الناصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة».

وفي تاريخه وصول الاسطول إلى المرية نظر فقد تقدم ان موسى حارب الحسن باسم العبيديين وعقد له السلم سنة عشرين ثم حاربه سنة خمس وعشرين باسم الأمويين.

وبعد فقد بذلنا الوسع لجمع الروايات وتمحيصها فيما يتعلق بأخبار صاحبي أرشقول وجراوة مع العبيديين والأمويين[1] فلم نستطع ان نفيد القارئ بأكثر مما وضعناه بين يديه.

أما صاحب تنس علي بن يحي فقد تأخر سقوط إمارته إلى سنة **342** ففيها تغلب زيري بن مناد على تنس ولحق علي بن يحي بالخير بن محمد بن خزر المغراوي صاحب وهران يومئذ. وأجاز ابنا علي يحي وحمزة إلى الناصر. فلقاهما رحبا وتكرمة. ثم عاد يحي منهما إلى طلب تنس فلم يظفر بها وجواز ابني علي إلى الأندلس يدل على ان أباهما كان آخذا بالدعوة الأموية مثل ابن عمه صاحب أرشقول.

هكذا انتهى أمر بني سليمان من الجزائر وسقطت معهم الجزائر العلوية بعد نحو نصف قرن من سقوط فاس.

---

[1] التقطنا تلك الأخبار من المغرب للبكري صفحات 78، 98، 142-143 ومن ابــن خلــدون (4: 17-18، 39، 141) 6: 135-6، 213 (7:76)

الباب الرابع

في الدولة الأغلبية

كلمة عن الدولة العباسية:

الدولة الأغلبية مرتبطة بالدولة العباسية وجزء من أجزائها. تستمد من أنظمتها ومعارفها وحضارتها .فلا بد من كلمة عن الدولة العباسية تعيننا بعض الإعانة على تصور الدولة الأغلبية.

بعد عراك شديد بين الأمويين والعباسيين ظهر العباسيون. وبويع بالكوفة أبو العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. وذلك سنة **132**(**750**م) وجاء بعده أخوه المنصور. فأسس بغداد سنة **145**(**762**م) وانتقل مركز الخلافة إليها فلم تزل دار الخلافة العباسية وقبلة آمال رواد المعارف ومصدر الحضارة الإسلامية حتى استولى عليها التتر وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها سنة **656** (**1258**).

اجتازت الخلافة ببغداد ثلاثة أدوار: دور الصعود والعظمة (**132**-**247**) إنتهى بقتل جعفر المتوكل سنة **247**، دور الهبوط إلى دخول معز الدولة بن بويه بغداد على عهد المستكفي سنة **334** حيث قضى على ما بقى للخلفاء من نفوذ سياسي، ويومئذ دخلت الخلافة دورا ثالثا أصبحت

فيه عبارة عن ذكر الخليفة في السكة والخطبة. وقالوا أنها صارت رئاسة دينية. ولكنها ـ عندي ـ رئاسة وهمية اخترعها السلاطين المتغلبون على الخلافة تعزيزا لمركزهم لاتقوية للخلافة اذ حياة الخليفة في هذا الدور تحت رحمة السلاطين. فكيف يعقل له نفوذ ديني؟

وقد تأسست الدولة الأغلبية في شباب الدور الأول حيث عني الخلفاء بتنظيم شؤون الدولة وإحداث المناصب وضبطها في الحكومة. فنقلوا الدولة من بساطة الخلافة وسذاجتها إلى ضخامة الملك ودقة نظمه، وعنوا كذلك بالعلوم والآداب وترقية المدارك عناية لم يسبقوا بها ولا حاكاهم من بعدهم فيها. ترجموا علوم اليونان وآداب الفرس وحكمة الهند، وبذلوا في ذلك الأموال وقربوا أهل العلم أيا كان جنسهم ودينهم، وأسسوا المكاتب والمدارس، فانطلقت الأفكار متسابقة في ميدان الابتكار. فانتشرت العلوم والمعارف وترقت الآداب ولطفت الأذواق، وعم التهذيب الأفكار والأعمال من إنشاء وتحرير وبناء وتزويق وغناء وتوقيع وهلم جرا.

قال سديو في كتابه «**خلاصة تاريخ العرب**»: «**وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شارلمانية ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عددها**».

وأظهر خلفاء الدور الأول عناية بالعلوم والحضارة أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد وعبد الله المأمون، وجاراهم في عنايتهم من بعدهم من الخلفاء وقلدهم فيها ولاهم بالجهات مثل الا غالبة، ولعل تلك الساعة الدقاقة إنما اجتازت إلى فرنسا على طريق القيروان.

ولما أخذت الدولة في السقوط السياسي كانت العلوم والآداب والصنائع والفنون الجميلة قد نضجت وأصبحت الأمة قادرة على القيام بها متعشقة لها، فلم يضرها ما أصاب الدولة من خلل بل بقيت في سيرها إلى الأمام تخدمها الأيام.

تأسيس الدولة الأغلبية:

كان المغرب لعهد تأسيس الدولة العباسية يضطرب فتنة، فلما كانت خلافة أبي جعفر المنصور اهتم به، فولى عليه محمد بن الأشعث الخزاعي، وكان الأغلب بن سالم الثميمي بخراسان من إضراب أبي مسلم الخراساني وكبار أولياء الدولة. فقدم المغرب مع ابن الأشعث، وكان الزاب هو طريق ثوار المغرب الاوسط إلى افريقية فلما خلصت افريقية لابن الأشعث ولى الأغلب على الزاب كي يكون سدا في وجوه الثوار، فترل قاعدته طبنة.

وفي سنة **148** عاد ابن الأشعث إلى المشرق فقلد المنصور الأغلب إمارة المغرب، فانتقل إلى القيروان، وقتل في بعض مواقفه مع الثوار سنة **150** وصارت الإمارة إلى آل أبي صفرة الازديين، وكان من ولاة طبنة

أيامهم المخارق بن غفار الطائي ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب ابن صفرة ثم ابراهيم بن الأغلب، وانقضت إمارة آل أبي صفرة وولي الأمر هرثمة بن أعين.

قدم هرثمة القيروان سنة **177** فهاداه ابراهيم بن الأغلب ولاطفه فاقره على عمله بطبنة، فبقي عاملا له ولمحمد ابن مقاتل العكي من بعده، وثار الناس بابن مقاتل وأخرجوه من القيروان، فبلغ الخبر ابراهيم بن الأغلب فسار في جنوده ودخل القيروان وأعاد إليها أميره العكي، ولكن الناس سئموا سيرته، وداخلوا ابراهيم في مخاطبة الخليفة بولايته على المغرب.

هنالك أتيحت لإبراهيم فرصة الاستقلال فانتهزها، وكتب إلى الرشيد طالبا منه إمارة القيروان على أن يؤدي اليه كل عام أربعين ألفا ويسقط مائة ألف دينار كانت مصر تعين بها المغرب، فاستشار الرشيد اصحابه، فأشار عليه هرثمة بولايته. فكتب العهد له بذلك منتصف سنة **184**(**800**م).

ولقد كان الرشيد حريصا على بقاء المغرب متصلا بدولته، وقد علم ضعف الأمراء السابقين عن مقاومة ثواره، فكان يوالي شرلمانية ملك الإفرنج كي يتخذ منه سدا أروبيا في وجوه بني أمية، ثم أقام ابن الأغلب سدا إفريقيا في وجوه تلك الدول المستحدثة بالمغرب، فكان رشيدا في سياسته كما كان ابن الأغلب كفؤا لإمارة القيروان.

الحكومة الأغلبية:

الحكومة الأغلبية تابعة لبني العباس اسما ومستقلة فعلا، واستفاد العباسيون من هذا الارتباط فائدة أدبية هي رسوخ سيادتهم في قلوب البربر رسوخا عجز العبيديون عن محاربته وظهرت وآثاره أيام المعز الصنهاجي.

واستفاد الاغالبة من ذلك فوائد علمية وإدارية وسياسية، فاستمدوا من العباسيين معارف ونظما ادراية وقبل البربر والعرب سيادتهم، فلم يلقوا اضطرابات داخلية ولا وقعوا بين هجمات شرقية وغربية.

ورئيس الحكومة يلقب الأمير، والقضاء مستقل عنه وغير مقيد بمذهب من مذاهب السلف، وللأمير وزيران مفوضان قد يصل بهما النفوذ إلى الاستبداد عليه، وتحتهما وزراء منهم صاحب الخراج بمعنى وزير المالية اليوم، وصاحب البريد، وقائد الجيش بمعنى وزير الحرب، ومقدم الاسطول بمعنى وزير البحر.

ونفوذ الأمير يمتد بواسطة عماله على جميع المملكة من طرابلس إلى الحضنة والزاب، وهنالك أماكن لاتصل إليها أيدي العمال. ومن الجهات ما تتوارث ولايته أسرة خاصة.

والحكومة الأغلبية أقوى حكومات المغرب يومئذ على حفظ الأمن وأحسنها سياسة للرعية. وأمراؤها أبقى الأمراء آثارا. ومملكتهم أعلى الممالك حضارة. والتعريف بهؤلاء الأمراء خارج عن موضوع كتابنا فنكتفي برسم جدول لتاريخ ولايتهم.

الأمير	الولاية		الأمير	الولاية	
	هـ	م		هـ	م
ابراهيم بن الأغلب	184	800	ابنه زيادة الله الثاني	249	863
ابنه أبو العباس عبد الله	196	812	اخوه أبو الغرانيق محمد	250	864
اخوه زيادة الله الأول	201	817	أخوهما ابراهيم	261	875
اخوهما أبو عقال الأغلب	223	838	ابنه أبو العباس عبد الله	289	902
ابنه أبو العباس محمد	226	841	ابنه زيادة الله الثالث	290	903
ابنه أبو ابراهيم احمد	242	856	وبه انتهت الدولة	296	909

الجزائر الأغلبية:

ذكر اليعقوبي الزاب. ونسب اليه مدنا منها باغاية وتيجس وميلة وسطيف وبلزمة ونقاوس وطبنة ومقرة وأدنة. قال: «**ومدينة ادنة هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب. ولم يتجاوزها المسودة**». والمسودة هم العباسيون لان راياتهم سود وشعارهم السواد. وإدانة كانت بالحضنة.

هذه الرواية الوحيدة التي عينت حدود الجزائر الأغلبية غربا. ويظهر أنها تنتهي جنوبا إلى وادي ريغ إلى شط الجريد، وشمالا إلى نواحي سطيف وميلة. ويخرج عناه شمالا وطن فرجيوة وجبال بني خطاب وبني تليلان إلى السكيكدة، وغربا وطن زواوة وصنهاجة. وكان مناد بن منقوش الصنهاجي يقيم الدعوة العباسية ويرجع إلى الا غالبة من غير ان يكون لهم نفوذ فعلي. ويظهر ان نفوذ الا غالبة بأوراس ضعيف. وكانوا يشرفون عليه من مدينة باغاية.

وقد رأيت أن الزاب كان يطلق على غالب عمالة قسنطينة اليوم. واختص لعهد ابن خلدون بما هو جنوب أوراس. قال: والجانب الغربي منه قاعدته طولقة، والوسط قاعدته بسكرة، والشرقي قاعدته بادس، ومن مدن الجزائر الأغلبية مجانة وتيفاش وبشرة والغدير.

ومجانة تعرف أيضا بمجانة المطاحن وهي على مرحلة شرقي مسكيانة. مدينة قديمة كبيرة عليها سور طوب. وبها جامع وحمامات. وبها مقطع حجارة الارحي ليس على الأرض مثله وحولها معادن الفضة والحديدي والكحل والرصاص والمرتك بين جبال وشعاب. ومن سكانها السناجرة أصلهم من ديار ربيعة. وهم جند السلطان. هذا ما وصفها به اليعقوبي والبكري. ويطلق اليوم اسم مجانة على سهل غربي برج بوعريريج.

وبشرة على ثلاث مراحل من الجريد. قال اليعقوبي: «**وهي أعظم مدائن نفزاوة. وبها ينزل العمال**».

وتيفاش قال البكري: «**مدينة أولية شامخة البناء. فيها عيون ومزارع كثيرة. وهي في سفح جبل. وفيها آثار للأول كثيرة**».

وباغاية مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح. ويتصل بناحيتها الغربية بساتين ونهر. وحولها من بقية النواحي ربض كبير. به فنادقها وحماماتها وأسواقها. وجامعها داخل الحضن. وبفحصها

قبائل مزاتة وضريسة رحالة. وقد خلي الربض زمن الإدريسي» وهي بين خنشلة والعين البيضاء.

وثيجس من عمل باغاية شمالها. مدينة أولية شامخة البناء كثيرة الكلأ والربيع. عليها سور صخر رومي. ولها ربض . وبها أسواق وجامع وحمام. وحولها من قبائل البربر نفزة وورغروسة وبنو وغمو وكزناية وحمزة من زناتة.

وبلزمة قال اليعقوبي: «**أهلها من بني تميم ومواليهم. وقد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت**». وسبب خلافهم ان الأمير ابراهيم بن أبي ابراهيم اتخذ نحو الألف منهم جندا. ثم أمر بقتلهم. فقتلوا عن آخرهم بعد دفاع. وقال البكري المتأخر عن اليعقوبي: «**هو لمزانة حصن قديم في بساط من الأرض كثير المزارع والقرى كثير الأنهار والثمار**».

ونقاوس قال اليعقوبي: «**كثيرة العمارة والشجر والثمر، بها قوم من الجند وحولها البربر من أوربة وغيرهم**».

ومقرة بسكون القاف قال: «**لها حصون كثيرة. وأهلها من بني ضبة وغيرهم. وحولها بنو زنداق وغيرهم**». قال البكري: «**مقرة بلد كبير ذو ثمار وانهار ومزارع**». وإلى مقرة هذه ينسب المقريون الشهيرون بالعلم والأدب الذين منهم صاحب نفح الطيب.

وإدانة أخربها علي بن حمدون صاحب المسيلة سنة **324** وكل من مقرة وادنة في وطن الحضنة. وجاءت في اليعقوبي وياقوت بلفظ إربة[1].

وطولقة قال البكري: «**هي ثلاث مدن كلها عليها أسوار طوب وخنادق. وحولها أنهار. وهي كثيرة البساتين بالزيتون والأعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار. إحداها يسكنها المولدون والثانية يسكنها اليمن والثالثة يسكنها قيس**» .

وبسكرة بكسر الباء والكاف قال: «**كورة فيها مدن كثيرة قاعدتها بسكرة. وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار. عليها سور وخندق. وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات. وحولها بساتين مساحة ستة أميال. ولها ارباض خارج الخندق، وأبواب منها بابا المقبرة وباب الحمام. وسكانها المولدون. وهم على مذهب أهل المدينة. وبها علم كثير**» .

وبادس قال: «**على مرحلة شرقي تهوذة. وهي حصنان لهما جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة**».

والغدير قريبة من برج بوعريريج. مدينة كبيرة أولية بين جبال. فيها عين ثرة عذبة عليها الارحاء وعين أخرى. وتحتهما عين خرارة تدعى

---

[1] وقد غرنا ذلك فكتبنا ما كتبنا بهامش ص334 من الجزء الأول.

عين مخلد. ومن هناك منبعث نهر سهر. وبها جامع وأسواق عامرة وفواكه كثيرة. وأسعارها رخيصة. وسكانها هوارة يعتدون في ستين ألفا.

وسطيف «**مدينة كبيرة جليلة أولية كان عليها سور خربته كتامة مع أبي عبد الله الشيعي. وهي عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار**» قال اليعقوبي: «**وبها قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل ابن الأغلب**» آخرهم علي بن جعفر.

وميلة قال اليعقوبي: «**مدينة عظيمة جليلة عامرة محصنة لم يلها وال قط، وبها حصن. فيه رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد من قبل ابن الأغلب، وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة، ولها من المراسي جيجل وقلعة خطاب والسكيكدة وغيرها. وهذا البلد كله عامر كثير الأشجار والثمار، وهم في جبال وعيون**».

وقال البكري: «**خربها المنصور بن بلقين الصنهاجي سنة 378 وأجلى أهلها. وبقيت خرابا ثم عمرت. وعليها اليوم سور صخر. وحولها ربض. وبها جامع وأسواق وحمامات. والمياه تطرد حولها. يسكنها العرب والجند والمولدون، وهي من غرر مدن الزاب، ولها باب شرقي، يعرف بباب الروس وعلى مقربة منه جامعها، وهو ملاصق لدار الإمارة، وباب جوفي يعرف بباب السفلي، ويليه داخل المدينة عين تعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني ياروت، يشق**

منها سوقها ساقية، ولها حمامات في ربضها، وبها عين تعرف بعين الحمى يرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدة بردها».

وينسب إليها علماء كثيرون. واشتهر في عالم الأدب أبو عبد الله ابن قاضي ميلة. أورد له قطعا الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم. ومن روائع شعره قوله:

جاءت بعود تناغيه فيتبعهـــــا	**فانظر عجائب ما يأتي به الشجر**
غنت على عوده الأطيار مفصحة	**رطبا. فلما ذوى غنى به البشـــر**
فلا يزال عليه أو به طـــــرب	**يهيجه الأعجمان الطير والوتـــر**

سقوط الدولة الأغلبية:

تأسست الدولة الأغلبية سنة **184** وسقطت سنة **269** فمدتها **112** سنة قمرية. وكان سقوطها على يد أبي عبد الله الشيعي. ذلك انه نزل بفرجيوة من أرض كتامة سنة **280** واخذ في تمهيد الأمر لعبيد الله المهدي. فأرسل الامير ابراهيم الاغلبي إلى موسى بن العباس عامله بميلة يستخبر عنه. فهون أمره عليه. ولما اشتد ساعده بكثرة الأتباع أرسل إليه الأمير ابراهيم قائلا:

«ما حملك على التعرض لسخطي والوثوب على ملكي، فان كنت تبتغي عرض الدنيا منحناك إياه. وإن أردت غير ذلك فقد علمت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك. وهذا أول كلامي وآخره. فانظر في يومك لغدك».

فقال أبو عبد الله للرسول: «**قد قلت فاسمع وبلغت فأبلغ. إني لست ممن يروع بالايعاد وفي أنصار الدين الذين لايخشون كثرة أنصار الظالمين. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة. ولا طمع لي فيما عنده. وانما جئت لأمر حم**».

ولم يكن بعد من الأمير ابراهيم إلا أن خرج غازيا لصقلية سنة **84** وترك مكانه ابنه أبا العباس وأوصاه بمسالمة الشيعي وان غلب على افريقية فليلحق بصقلية. وبلغ أبا العباس عن ابنه زيادة الله وما حمله على سجنه، فصانع زيادة الله بعض الخدم على قتل والده وقتله سنة **90** والحرب قائمة بين الاغلبيين والشيعيين بنواحي سطيف. ثم جلس مكان أبيه وقتل كل مَن يظن فيه منازعته من إخوته وعمومته. وعكف على الملاهي وأهمل أمر الدولة.

تلك حال الأسرة الأغلبية في هذا الوقت. أما الجند فكان مؤلفا من عرب وبربر من أهل الشام وخراسان وغير ذلك. وكلهم مأجورون ليست لهم غاية دينية أو غيرة وطنية. وربما ثاروا على الحكومة وخرقوا حجاب هيبتها. فلم يكن لهم من الحماسة والإخلاص ما لاصحاب الشيعي.

ولم تعمل الحكومة لبسط نفوذها على جميع المملكة. وكانت هذه السياسة نافعة في قلة الثورات الداخلية حتى لاتشغل بإطفائها عن الجهاد

الذي كانت معنية به. لكنها ضارة من حيث ترك السبيل لمن يبث دعاية ضد الحكومة ويفسد عليها الرعية.

فلولا سوء هذه السياسة ما وجد الشيعي مكانا لبث أفكاره. ولولا سوء النظام العسكري لتغلبت الدولة على الثورة. ولولا قتل زيادة الله لأبيه وأقاربه لأمكن للدولة ان تعيش أكثر مما عاشت بافريقية أو بصقلية.

والجزائر غير الخاضعة للدولة هي الثائرة والجزائر الخاضعة لها هي المدافعة. وبتغلب الشيعي عليها تم سقوط الدولة الأغلبية. ففر زيادة الله إلى المشرق. وأعانه المقتدر العباسي على استرجاع مكانه. ولكن صدق عليه المثل: «**الصيف ضيعت اللبن**» فلحق ببيت المقدس. وتوفي هنالك ولسان حاله ينشد:

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته   كذاك من لايسوس الملك يخلعه

الباب الخامس

في الدولة العبيدية

تمهيد:

كانت الجزائر في القرن الثالث مقسمة بين أمارات حفظت التوازن بين ذوي السلطان، وأرضت القبائل المتعادية باستقلال بعضها عن بعض، فكان ذلك الانقسام مسكنا للثورات منشطا للحياتين العلمية والاقتصادية.

وفي النصف الأخير من هذا القرن ساءت الحياة الاقتصادية وارتفعت الأسعار. قال ابن أبي زرع:

«وتوإلى القحط سنة 253 إلى سنة 65 حتى أنه عم سنة 60 بلاد الأندلس والمغرب ومصر والحجاز. وفي سنة 276 طبقت الفتنة جميع بلاد الأندلس والمغرب وافريقية. وفي سنة 285 كانت المجاعة الشديدة التي عمت بلاد الأندلس والعدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا. ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير. هلك فيه من الناس ما لا يحصى».

لم يخف على ايمة الشيعة بالمشرق ما عليه المغرب من ضعف سياسي بسبب انقسامه إلى إمارات. ومن ضعف مادي لما حل به من المجاعات والموتان فأرسلوا دعاتهم اليه لينشؤا به دولة. ففازوا. وتأسست الدولة العبيدية التي ابتلعت تلك الإمارات ووحدت الإدارة. ولكنها أعادت للمغرب حياة الثورات.

وهي تنسب إلى عبيد الله المهدي أول أيمتها. وكانت قاعدتها المهدية نسبة اليه أيضا. ثم انتقلت إلى مصر وعرفت هناك باسم الدولة الفاطمية.

وكان العبيديون يزاحمون بني العباس في الملك والسياسة وينافسونهم في العلم والحضارة. وبلغت دولتهم بالمغرب ومصر رقيا لايقل عن رقي الدولة العباسية، وتركوا آثارا تشهد بفضل حضارتهم، ولكن لم يكن منها بالجزائر غير ما لعمالهم بني حمدون والصنهاجيين، وتصح نسبتها لهم لكونهم أساتذة أولئك العمال والآخذين بيدهم إلى تلك المنزلة.

الشيعة الإسماعيلية بالجزائر:

شيعة الرجل من يتابعه ويناصره، وهم لدى المؤرخين من تولى علي بن أبي طالب وفضله على جميع الصحابة، ووجدت شيعة علي بعد قبض رسول الله (**صلعم**) فكانوا يرونه أحق بالخلافة، فلما صرفت عنه دخلوا فيما دخل فيه الجمهور.

وقد عرف بعض المفسدين أن لعلي (ض) شيعة، فاتخذوا التشيع مساغا لتفريق الكلمة وكيدا للإسلام، وكان من أشهرهم عبد الله بن سبا رجل يهودي، بث فكرته بالبصرة والكوفة ومصر وانتشرت عنه مقالات في الجهات.

أصبح التشييع ضربا من ضروب التدجيل السياسي. فتعددت المقالات وكثرت الفرق. فكان منها الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين، ومنهم شيعة إدريس. ومنها الامامية الروافض، ومن شعب الامامية الإسماعيلية وهم القائلون بإمامة إسماعيل ابن جعفر الصادق، وقد توفي حياة والده ومع ذلك يرونه إمام توصلا إلى إمام عقبة. وليس من غرضنا شرح مذاهب الشيعة ومباديها.

والإسماعيلية يسمون أيضا الباطنية لقولهم بالإمام الباطن يريدون المستور ولقولهم أن نصوص الشريعة رموز مراد بها بواطن لا يفهمها إلا الإمام. وكان العبيديون من هؤلاء الإسماعيلية.

كان الإسماعيلية ينتخبون الدعاة الأكفاء يبثونهم في الأوطان لنشر مذهبهم. فأرسلوا إلى المغرب داعيتين هما: السفياني والحلواني وقالوا لهما ان بالمغرب أرض بور فاذهبا إليها وأحرثاها حتى يجئ صاحب البذر. فنزل أحدهما مرماجنة والآخر سوق حمار من ناحية قسنطينة. وبثا الإسماعيلية في الناس إلى أن توفيا.

وخلفهما أبو عبد الله الحسين بن أحمد. قدم مع حاج كتامة: موسى بن حريث كبير بني سكان ومسعود بن عيسى بن ملال المساكتي

وغيرهما. فدخلوا به بلدهم سنة **279** وتنازعوا عليه. كل يريد أن يكون معه. فقال لهم ان النص عندي من المهدي. بأن مترلي بفخ الاخيار، فأين يكون منكم؟ قالوا هو عند بني سليمان. وسلموا حكمه وظنوه اطلاعا على الغيب اذ لم يجر ذكر الموضع في طريقهم. وهو عند البصير دليل على تدجيل الشيعة وخبرة أيمتهم بأحوال البلدان وما نأى عنها عن قبضة السلطان.

أخذ أبو عبد الله قي بث الرفاضية الإسماعيلية وذكر المهدي وقرب ظهوره وأن أولياءه مشتق اسمهم من الكتمان وأنه يهاجر إليهم. وعرف بينهم بالمعلم وبالشيعي وبالمشرقي.

ولما تمكنت دعوته انتقل من الجدال إلى الجلاد. وأسس في ايكجان قرب سطيف إلى ناحية قسنطينة مدينة سماها دار الهجرة. وسمى إتباعه المؤمنين. وقاد الأجناد وفتح البلاد، ولحق به عبيد الله المهدي فظهر بسلجماسة وحبس بها، فلما تغلب أبو عبد الله على افريقية ذهب اليه وأتى به وسلم له الأمر.

ثم أظلم الجو بين المهدي وداعيته أبي عبد الله وتمشت بينهما السعايات، فتخير المهدي من وجهاء كتامة عروبة بن يوسف وأخاه حباسة، وأمرهما بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، ولما حمل عروبة على أبي عبد الله قال له لا تفعل! فأجابه: «**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك!**» فقتلا معا يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأخير سنة **298** وتلك عاقبة كل ساع في تأسيس دولة لغيره.

أبو عبد الله هو مؤسس الدولة العبيدية على الحقيقة، كان عالما يقظا سياسيا داهية حربيا ماهرا زاهدا متقشفا، وهو الذي يقول لما أطل بجيوشه على طبنة من فج زيدان:

من كان مغتبطا بلبن حشيـــة[1] فحشيتي وأريكتي سرجـــي

من كان يعجبه ويبهجــــــه نقر الدفوف ورنة الصنـــج

فانا الذي لا شيئ يعجبـــــني الا اقتحامي لجـــة الوهـــــج

سل عن جيوشي إذا طلعت بها يوم الخميس ضحى من الفج

ومع ما قاساه في تأسيس هذه الدولة لم يتمتع فيها بما كان يرجوه من علو الكعب فخسر الدنيا والآخرة، وصدق عليه المثل «**لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت**».

قال القاضي أبو عبد الله بن حماد في كتابه اخبار ملوك بني عبيد «**وكان مما احدث عبيد الله المهدي أن قطع صلاة التراويح وأمر بصيام يومين قبل رمضان. وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، واسقط من آذان الصبح «الصلاة خير من النوم» وزاد حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر ة وكذلك كان الأذان مدة بني عبيد**».

وبعد الآذان يدعو المؤذن للإمام ويصلي عليه وعلى آبائه وأبنائه بصيغة نسجتها يد السياسة دعاية لهذه الحكومة التي اعتنت ببث الدعاة في سائر الأوطان حتى بلغوا السوس الأقصى، وكان منهم هنالك علي بن

---

[1] هكذا جاءت هذه العروض بخلاف مابعدها في البكري. والوهج لعله الرهج.

عبيد الله البجلي، وكان اتباعه يدعون البجلية. بقوا بعد الدولة العبيدية إلى أيام المرابطين. و لم تمت بالمغرب الشيعة الإسماعيلية بذهاب الدولة العبيدية بل عاشت بعدها زمنا.

تأسيس الدولة العبيدية:

تأسست الدولة العبيدية بالدعاية الدينية والحنكة السياسية اللتين كانتا لأبي عبد الله الشيعي وبالقيمة الحربية التي كانت لكتامة ووطنها وبسوء سياسية زيادة الله الثالث الذي قتل أباه وكثيرا من أهله وذويه.

ابتدأ أبو عبد الله بتعليم المذهب الاسماعيلي ثم أعلن إمامة الفاطميين وأخذ يذكر المهدي وقرب ظهوره. فبلغ أمره ابراهيم الاغلبي فأرسل اليه يتهدده. فأجابه جواب من أيقن بنجاح سياسته. وبلغ جوابه عمال وطن كتامة ورؤساء عشائرها فاجتمع منهم للمفوضة في شأنه عمال ميلة وسطيف وبلزمة ويحي المساكتي المدعو بالأمير ومهدي ابن أبي كمارة اللهيصي وفرج بن خيران الاجاني وثمل بن فحل اللطاني، فاتفقوا على مراسلة بيان بن صقلاب رئيس بني سكان في ان يسلم إليهم أبا عبد الله أو يخرجه من بلدهم، فأجابهم باستشارة أهل العلم. فتآمروا باغتياله. وشعر انصاره بذلك. ففرقوا المتآمرين. وأطبقت على مظاهراته.

عاد أولئك العمال والرؤساء إلى مخاطبة بيان بن صقلاب حتى استمالوه إليهم. فاستجار أبو عبد الله بالحسن بن هرون رئيس غسمان. ونزل عليه ببلدة تازروت فنشبت الحرب بين غسمان أولياء أبي

عبد الله ولهيصة أعدائه. فقتل أبو مديني أخاه مهدي بن أبي كمارة. ورأس مكانه لهيصة، وكان من حزب أبي عبد الله فاتحدت غسمان ولهيصة على ولائه وحاروبوا من يحاربه.

كان أبو عبد الله ينتصر دائما على أعدائه فكثر أنصاره. وزحف إلى ميلة. ففتحها. وولى عليها ماكنون بن ضبارة. وقتل صاحبها موسى بن العباس. ففر ابنه ابراهيم إلى تونس ونزل على الأمير أبي العباس نائب أبيه ابراهيم الذي كان يومئذ بصقلية. وحرضه على محاربة الشيعي، فجهز ما ينيف على عشرين ألفا عقد عليها لاخيه الأحول، ولم يكن أحول، وانما كان يكسر جفنه إذا أدام النظر.

فصل الأحول بالجنود من تونس سنة **89** ففتح سطيف ثم بالزمة، وقصد تازروت، وكان الشيعي قد كثرت جموعه وتكررت انتصاراته وانتشر صيته، فخرج للقاء الأحول، فانهزم ببلد ملوسة، وبلغ الأحول تازروت، فهدمها، وتحصن الشيعي بجبل ايكجان، وقصد ابراهيم بن موسى ميلة، فاعترضه طائفة من المتشيعة هزمته إلى معسكر الأحول.

ثم عاد الأحول إلى تونس، فخلا الجو للشيعي، وتلاحق الناس إلى دعوته. فعاد الأحول إلى حربه ونزل سطيف. واتخذها معسكره، وبينما هو يغير وينهزم اذ أتاه الأمر بالعودة إلى تونس على لسان أخيه الذي قتله ابنه زيادة الله، فلما بلغها قتله ابن أخيه.

ولما استيقن الشيعي بنجاح أمره أرسل إلى سيده عبيد الله يستقدمه ويخبره بما فتح من الأوطان. فخرج عبيد الله وابنه أبو القاسم وأبو العباس

اخو أبي عبد الله في زي التجار. وبلغوا مصر سنة **89** وأذكى بنو العباس عليهم العيون. فقبض على أبي العباس بطرابلس وسجن بها. وظهر عبيد الله وابنه بسلجماسة يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة **96** فاعتقلا بها. كذا قيل. وظاهر الأخبار الآتية انه ظهر بها قبل هذا التاريخ. ووجه صاحبها اليسع بن مدرار كتابا إلى زيادة الله يعلمه ذلك، فلما دخل رسوله ارض كتامة وقع بين قوم ظنهم في ولاية الاغالبة. فاخبرهم خبره فرفعوه إلى أبي عبد الله. فألفى معه كتاب اليسع فتعرف منه خبر عبيد الله.

وبعد خروج الأحول من سطيف بقي أهلها محاربين لأبي عبد الله. فحاصرها مدة. ثم فتحها وهدم سورها. وأمن أهلها وعقد زيادة الله لإبراهيم بن حبيش على أربعين ألفا. نزل بها قسنطينة. وأقام بها هنالك ستة أشهر. اجتمع له فيها من الجنود مائة ألف. والتقى بها مع الشيعي على بلزمة. فانهزم إلى باغاية ثم عاد إلى القيروان.

وتوجه أبو عبد الله إلى طبنة. ففتحها بعد الحصار صلحا، ثم فتح بلزمة عنوة. وقصد عروبة بن يوسف من اصحابه عامل باغاية هرون بن الطبني، وقد عقد له زيادة الله على اثني عشر ألفا، فقتله عروبة. وزحف من اصحابه أيضا يوسف الغسماني إلى تيجس.فدخلها بعد الحصار صلحا. ولحقت حاميتها بالقيروان. ووجه سرية فتحت مرماجنة عنوة. وقتلت عاملها، وهي فيما بين مجانة وسبيبة. واستأمن له أهل تيفاش. فاستعمل عليهم صواب بن أبي القاسم السكاني. وفتح بنفسه صلحا

باغاية ومسكيانة وتبسة. وعاد إلى ايكجان بعد ما سرح العساكر تردد الغارات على نفزة وغيرهم.

واتخذ زيادة الله معسكره بالاربس وهي مدينة في الجنوب الشرقي من مدينة الكاف بعمل تونس قريبة من سبيبة. وأصبح يغير من هذا المعسكرعلى كل النواحي المتشيعة. فاسترجع تيفاش. وخرج أبو عبد الله من ايكجان لتعميم فتحه. فاخذ قسنطينة بعد الحصار صلحا. وشرق حتى بلغ قفصة وملكها. ثم عاد إلى ايكجان. وترك حامية بباغاية لمواقفة جنود الا غالبة ورد غاراتها.

ثم قصد أبو عبد الله الاربس في جمادي الأخيرة سنة **96** في مائة ألف بين فارس وراجل وكانت بين الفريقين حروب صعبة ولكنها من المعارك الفاصلة. ودخل أبو عبد الله الاربس عنوة وانهزم جيش الاغالبة هزيمة نكراء وفر زيادة الله إلى المشرق.

واقبل الشيعي إلى رقادة دار ملك الاغالبة في سبعة عساكر فيها ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل. فدخلها. وبين يديه رجل يقرأ: «**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر**». الآية «**كم تركوا من جنات وعيون**» الآية. وكان دخوله رقادة في رجب سنة **96**.

نزل أبو عبد الله قصر الإمارة. وضبط ما فيها. واستقدم أخاه من سجن طرابلس. واستخلفه على رقاده. وخرج إلى سجلماسة ففرت أمامه زناتة. وملك تاهرت. وولى عليها دواس بن صولات اللهيصي، وأخذ

السير إلى سجلماسة فاخرج من سجنها عبيد الله وابنه. واركبهما. وبايعته عساكر كتامة وأهل سجلماسة.

وبعد أن مهدوا تلك النواحي عادوا بعبيد الله فمروا به على ايكجان. واخذ ما فيها من غنائم. ثم ارتحلوا إلى رقادة. وبها بويع عبيد الله البيعة العامة وتلقب بالمهدي. وذلك في ربيع الثاني سنة **297**.

الحكومة العبيدية:

الدولة العبيدية مستقلة استقلالا تاما، وحكومتها يصح ان تسمى مطلقة لان المذهب الاسماعيلي يرى الإمام معصوما. فيجمع له كل السلط تشريعية وتنفيذية وقضائية.

والإمام هو رئيس الحكومة الأعلى. ويلقب أمير المؤمنين ويتعين بالعهد اليه من سلفه. ولابد ان يكون من آل البيت. ولهذا كثر النزاع في نسب عبيد الله المهدي. قال أبو عبد الله بن حماد: «**اختلف الناس في نسبه إلى الحسين بن علي عليهما السلام. فمن مسلمين ما ادعاه ومقرين بما حكاه ومن مانعين ما انتحله والذي ادعاه هو انه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين. والذي ادعاه الناس لا برهان عليه. فلا حاجة لي إليه**» **1**هـ.

ويساعد الإمام وزراء وعمال وقضاة. ويختص الإمام وولي عهده بالمظلة. قال أبو عبد الله بن حماد: «**وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الأحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه. يمسكها فارس من الفرسان يعرف بها. فيقال صاحب المظلة. وكانت عندهم خطة يتداولها من يؤهل لها، فيحاذي بها الملك من حيث كانت الشمس، يقيه حرها بظلها، وفيها يقول محمد بن هانيء الأندلسي من قصيدة يمدح فيها معدا المعز:**

وعلى أمير المؤمنين غمامة نشأت تظلل تاجه تظليـــــــــــــلا
نهضت بمثل الدرع ضوعف نسجه وجرت عليه عسجدا محلولا

ولم يعلم أحد غير بني عبيد اتخذ هذه المظلة الا ملك الروم بصقلية، واحسب أنهم أهدوها اليه في بعض هداياهم، وكأني سمعت هذا»1هـ.

والحكومة العبيدية لاتعترف بأية حكومة أخرى، فكانت ترسل الدعاة إلى جميع الأوطان الإسلامية دون بلاد الكفر! ولهم رئيس يقب داعي الدعاة، وهو الذي يأخذ البيعة للإمام، وبهؤلاء الدعاة ملكت اليمن والبحرين ثم الحجاز وخطب لها بمدينة بغداد على عهد المستنصر من أيمتها، وكانت لها جيوش جرارة وأساطيل عديدة، حافظت بها على ممالكها، وملكت بها مصر والشام. وغزت بها سواحل أوروبا، وفتحت جنوة من بلاد ايطاليا، ولكن عنايتها بفتح العالم الإسلامي أشد!

وكانت تجبر الناس على العمل بمذهبها، فتشيع كثير من أهل العالم رغبة أو رهبة، وامتحن كثيرون من أجل ترك البسملة في الفريضة وترك «**حي على خير العمل**» في الآذان، وكانت لا تسمع في ولايتها من يشكو جورهم تأليفا لهم إذ لاغنى لها عنهم وإضعافا للرعية حتى تأمن ثورتها، ورفع الناس مرة إلى عبيد الله أن القاضي المروزي يرتشي ويقتني الأموال. فلم يرفع لها رأسا. فرفعوا إليه أنه يقدح في الدولة فعزله وعذبه ثم قتله.

وأحدث بنو عبيد الخراج على الأرضين قال محمد ابن الحارث وهو ممن أدرك أوائل هذه الدولة: «**امتحن مالك بن عيسى القفصي بصحبة عبيد الله. وبتعديل الأرض له لتوظيف الخراج الذي يسميه المقسط**»اهـ.

ولم يكن للعبيديين ثقة بأهل المغرب. فشرع المهدي من فوره في تأسيس المهدية، واختار لها موقعا حربيا مهما. وبالغ في تحصينها. وانتقل إليها سنة **308** وقال إنما بنيتها لتعتصم بها الفواطم ولو ساعة من نهار. ولما فتح المعز مصر بادر بالانتقال إليها. وأوصى خليفته بلقين بن زيري بوصايا. وقال له: «**إن نسيت شيئا فلا تنس هذه الوصايا: أن لا ترفع السيف عن البربر وأن لا ترفع الجباية عن أهل البادية وأن لاتولي أحدا من قرابتك لئلا يطمعوا في أمرك، وان تحسن إلى أهل الحاضرة**»اهـ.

هذه الوصايا تصور لك حرص الحكومة على استعباد الأمة وتلك سياسة كل حكومة أجنبية انتفاعية. وإنما أوصاه خيرا بأهل الحاضرة لان فيهم كثيرا من الإسماعيلية. وقد وقذت الحضارة غيرهم فلا تخشى منهم ثورة.

وأيمة العبيديين بالمغرب أجل قدرا وأنفذ أمرا من أيمتهم بمصر تولى منهم بالمغرب أربعة وبمصر عشرة. واستقل المغرب عنهم أيام المستنصر بن الظاهر. وانتهت دولتهم بموت العاضد في المحرم سنة **567**(**1171**م) فحول وزيره صلاح الدين الأيوبي الدعوة إلى العباسيين فكانت مدتهم **269** سنة.

وهاك ايمة هذه الدولة

الخليفة	الولاية		الخليفة	الولاية	
	هـ	م		هـ	م
عبيد الله المهدي	297	909	ابنه معد مستنصر	427	1035
ابنه محمدالقائم	322	933	ابنه احمد مستعلي	487	1094
ابنه إسماعيل المنصور	334	945	ابنه منصور الآمر	495	1101
ابنه معد المعز	341	952	عبد المجيد الحافظ بن محمد بن المستنصر	524	1130
ابنه نزار العزيز	365	975	ابنه يوسف الظافر	544	1149
ابنه منصور الحاكم	386	996	ابنه عيسى الفائز	549	1154
ابنه على الظاهر	441	1020	اخوه عبد الله العاضد	555	1160

تيهرت العبيدية وزناتة:

دخلت تيهرت في حكم العبيديين سنة **296** فجعلوها قاعدة المغرب الاوسط وانتخبوا لها الولاة من أوليائهم. ففتحوا لها سائر المغرب أوسطه وأقصاه. ودخلت وهران في عمل تيهرت سنة **298**.

ووهران حديثة التأسيس يومئذ. قال البكري: «**وهي حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين. ولها مسجد جامع. بناها محمد بن أبي عون وجماعة من الأندلسيين البحريين سنة 290 باتفاق مع نفزة وبني مسقن. وأقاموا بها دعوة الأمويين، وفي سنة 97 زحفت إليها قبائل كثيرة يطالبون الأندلسيين بإسلام بني مسقن إليهم لدماء كانت بينهم. فأبوا من إسلامهم فحاصروهم ومنعوهم الماء، فخرج بنو مسقن ليلا واستجاروا بازداجة، ثم نجا الأندلسيون بأنفسهم، فتغلب أولئك القبائل على وهران في ذي الحجة واضرموها نارا، ثم عاد أهل وهران إليها سنة 98 بأمر أبي حميد عامل تيهرت، وولى عليهم محمد بن أبي عون، لاوابتدأوا بنيانها في شعبان، فعادت أحسن مما كانت، ولم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال إلى أن دخلها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 343 فخربها وحرقها ثانية، وبقيت كذلك سنين، ثم تراجع الناس إليها وبنيت**» 1هـ.

وقال فيها الإدريسي ما ملخصه: «**عليها سور من تراب متقن، وبها أسواق مقدرة. وصنائع كثيرة. وتجارات نافقة. ومنها أكثر ميرة**

أهل ساحل الأندلس. وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر. وعليه بساتين وجنات. وأهلها في خصب. يوجد لديهم العسل والسمن والزيت والغنم. والبقر بها رخيصة. وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة» 1هـ.

وقد وقعت تيهرت بين مواطن زناتة. وكان سنيهم وخارجهم مخالفين للعبيديين. فاجلبوا عليهم مرارا. واشتهر من رؤسائهم يومئذ محمد بن صالح اليفرني ثم ابنه يعلي. ومحمد بن خزر المغراوي من عقب محمد بن خزر صاحب إدريس. وإخوته عبد الله وفلفول ومعبد وأبناه الخير وحمزة.

لما توجه أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة لم تدر زناته وجهته ففرت من طريقه. فلما بلغها أرادت ان تقطع عنه خط الرجعة. فزحفت سنة **97** إلى تاهرت وواطأها من أهل المدينة بنو دبوس. فسجنهم عاملها أبو حميد دواس بن صولات اللهيصي الكتامي. بحصن بن بخاتة. ثم قتلوا به.

وتغلب محمد بن خزر على بعض أرباض المدينة. ففر منها دواس إلى قلعة ابن حمة. ثم أجلى التيهرتيون زناتة عن مدينتهم وأعادوا إليهم عاملهم. ثم ثاروا به سنة **98** فنجا إلى حصن ابن بخاتة. وأدخلوا محمد بن خزر المدينة ثم خذلوه فانصرف عنهم. وجاءت جيوش العبيديين. فحاربوا أهل تاهرت ثلاثة أيام ثم دخلوها في صفر سنة **99** وفعلوا بأهلها الأفاعيل. وعاد إليها دواس. إلى أن صرفه عنها المهدي ثم قتله برقادة.

ولي تاهرت بعد دواس مصالة بن حبوس المكناسي. وهو الذي فتح فاسا. وكانت بينه وبين زناتة حروب. ففي بعض أيامه فصل من جيشه خيلا لبعض النواحي. وبقي في قل. فقصده محمد ابن خزر وقتله في شعبان سنة **312** فولى المهدي مكانه أخاه يصل بن حبوس. فغمرته الثورات. وقصد محمد بن خزر تيهرت سنة **14** فانهزم عنها. واخرج المهدي في أثره موسى بن محمد الكتامي في طائفة من القواد. فدخل محمد ابن خزر الصحراء. وترك أخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة. فحارب موسى بن محمد وانتصر عليه. ثم أخرج المهدي اسحق بن خليفة وأبا عروس في عسكر كتامة. فهزمهم أيضا. ودخلت في ولاية عبد الله بن خزر وطاعة أخيه محمد لماية وما جاورها من القبائل فعظم الخطب على الشيعة.

وفي تاسع صفر سنة **315** بعث المهدي ابنه أبا القاسم في عساكر كتامة ومن انضاف إليهم، ففر ابن خزر في الصحاري على المهاري. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الأباضية والصفرية. من نواحي تاهرت إلى ما وراءها.

وبقي يصل واليا بتيهرت إلى أن توفي سنة **319** فخلفه ابنه حميد. وفي هذه السنة تقدم موسى بن أبي العافية المكناسي عامل العبيديين بالمغرب الأقصى. فاخضع لهم تلمسان ووهران والبطحاء وتنس وشرشال. ثم فضهم. وخطب لبني أمية. فجهز له المهدي حميد بن يصل

سنة **321** في عشرين ألفا، فانتصر عليه. ثم انقلب هو أيضا أمويا سنة **28** ولم يكن يومئذ واليا بتيهرت.

وتوفي المهدي فخلفه ابنه أبو القاسم محمد القائم. فولى على تيهرت أبا مالك يغمراسن بن أبي شحمة اللهيصي. فثار به أهل المدينة وأخرجوه سنة **23** وقدموا على أنفسهم أبا القاسم الأحدب بن مصالة ابن حبوس. فنزل عليهم ميسور الخصي سنة **24** وظفر بهم. وقتل واليهم وولى عليهم داود بن ابراهيم العجيسي. فانقرضت به ولاية المكانسيين بتيهرت. وأصبحت مكناسة التي كانت محاربة لزناتة متحدة معها على ولاية الأمويين وحرب العبيديين.

وفي سنة **333** أجلب حميد بن يصل على تيهرت، وظاهرته لواته، فأخرج منها داود، وأقام بها الدعوة الأموية، وشغل عنه العبيديون بأمر صاحب الحمار.

ولما قبض إسماعيل المنصور على صاحب الحمار توجه إلى تيهرت في صفر سنة **36** ففر منها حميد. ولحقت لواتة بالرمال، وملك المدينة. وأحرق منبرها لكونه خطب عليه للأمويين، وولي عليها ميسورا الفتى وهو غير ميسور الخصي المتقدم.

وثار التيهرتيون بميسور، وكاتبوا محمد بن خزر، فوجه لهم جيشا به أبناه الخير وحمزة وأخوه عبد الله ويعلى بن محمد بن صالح اليفرني. وخرج إليهم ميسور في رجال لماية، فدارت الحرب بين الجمعين. وقتل حمزة بن محمد بن خزر، ثم أسر ميسور، وفتحت زناتة المدينة، ولم يجد العبيديون

سبيلا لغلبة زناتة غير تفريق كلمتهم، فاستمالوا يعلى بن محمد اليفرني، وعقدوا له على تاهرت والمغرب الأوسط إغاظة لمغراوة وكبيرها ابن خزر، لكن يعلى لم يلبث أن راجع طاعة الأمويين.

وفي سنة **47** جهز المعز قائده جوهرا الصقلي لإخضاع المغربين، وأمر ولاة الجهات بإمداده فخرج معه جعفر صاحب المسيلة وزيري صاحب أشير، وانظم إليهم محمد ابن خزر بداعي المنافسة ليعلى، فالتقى الجمعان، على مقربة من تاهرت. قال ابن أبي زرع: «**فالتحم الحرب بين الفريقين، وبذل جوهر الأموال لقواد كتامة على قتل يعلى، فصممت منهم عصابة، وصدمت إلى يعلى. فقتلته وأتت برأسه إلى جوهر، فبعث به إلى المعز. وطيف به في القيروان»1هـ.** وأضيف عمل تيهرت إلى صاحب أشير زيري بن مناد الصنهاجي، فرمى العبيديون زناتة بصنهاجة، وغلبوهم بذلك على تاهرت.

العبيديون وجبل أوراس:

كان جبل أوراس معدن الثورات لحصانة موقعه واختلاف سكانه أصلا ومشربا. وكانت عاصمته باغاية. تنتخب الدولة لولايتها الأكفاء المخلصين من أوليائها.

وليها عروبة بن يوسف الكتامي سنة **298** بعد قتله للشيعي. واتصل بعمل تاهرت. وكان أخوه حباسة من أعظم القواد. وولي عمل برقة. ثم

قتله المهدي سنة **302** فغضب عروبة لقتله. وثار في أوليائه من كتامة وغيرهم. فجهز له المهدي مولاه غالبا. فقتله وقضى على ثورته من سنتها.

وفي سنة **231** انعقد بجبل أوراس مؤتمر للثورة. فبايعوا أبا يزيد مخلد بن كيداد. وتلقب شيخ المؤمنين. وحارب العبيديين. وحصرهم بالمهدية. واستولى على سائر افريقية والمغرب الأوسط. ثم أساء السيرة. فضجت منه الأمة. وخذلته. فتغلب عليه العبيديون. وقوام هذه الثورة عداوة الأمة لمذهب الحكومة. ونفار القبائل من تحكم كتامة، وظهور دعوة الأمويين بالمغرب الأوسط.

وهذا أبو يزيد أصله من الجريد. ونسبه في بني واركوا من يفرن. كان أبوه يختلف بالتجارة إلى السودان. فاشترى بتادمكت أمة تدعى سبيكة. فحملت منه بابي يزيد. وكان أعرج وعمره يوم ثار ستون سنة. وبه علل كثيرة. ونشأ فقيرا مشتغلا بالعلم والأدب. وأخذ برأي النكار من الأباضية. وعني بتعليم الصبيان. ورزقه من صدقات الناس. ثم أخذ في الطعن على الحكومة. فضيقت عليه وخشي الناس مجالسته. فجروه. فخرج من توزر إلى أوراس. ونزل على بني كملان من هوارة. فأيدوه على الثورة. وصحبه أبو عمار الأعمى بن عبد الله الحميدي من مقدمي الأباضية.

قام أبو يزيد بدعوة عبد الرحمن الناصر الأموي. وسمي الملازمين له من اتباعه العزابة، ومن بايعه وانصرف عنه عدة المسلمين، وتظاهر أول أمره بالزهد. فكان يلبس من خشين الصوف جبة قصيرة ضيقة الكمين

وقلنوسة. ويركب حمارا أشهب أهدي له بمرماجنة. فدعي لذلك صاحب الحمار. وبهذه المظاهر السياسية والدينية جذب عامة الناس إليه. فانضاف إليه محمد بن خزر وأخوه معبد، واجتمعت اليه هوارة وزناتة ونفوسة وغيرها.

ولما أعجب بكثرة جموعه وثمل بانتصاراته انتقل إلى ركوب جياد الخيل ولبس الحرير والديباج واستباحة الفروج والدماء وكانت عساكره تأتي أنواع المناكر من سلب ونهب واغتصاب حريم حتى أنهم ليبقرون الحوامل ويشقون بطون الرجل عسى ان يكون بها مال ابتلعوه. ولا تسأل عما تحدث هذه الأفاعيل من ذعر وخراب. ولما عوتب عن تنعمه بعد تقشفه تلا قوله تعالى: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**» الآية. ولما شكي الناس إليه ما أصابهم من عساكره أنشد:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه   فما فاته منها فليس بضائر

فكان ذلك ما زوى قلوب الناس عنه وأضاع عليه ثمرة انتصاراته.

وكان ابتداء هجوم أبي يزيد في سنة **32** فنزل من أوراس إلى باغاية، فحاصرها، ولم يقدر على فتحها، فرأى أن يوسع نطاق الثورة ليفرق عنه قوة الحكومة، فأثار بني واسين فحاصروا توزر سنة **333** ودخل حميد بن يصل تاهرت، وفتح هو صلحا تبسة ومجانة ومرماجنة. ثم استولى على الاربس وسبيبة وباجة وتونس ورقادة والقيروان وسوسة، كل ذلك أثناء عام **333** وتقدم فحاصر المهدية. وأفرج عنها في صفر سنة **34** وكان ابنه أيوب بباجة لحشد الناس. وخرج عامل المسيلة علي بن حمدون لإنجاد

المهدية في جموع زواوة وكتامة فمر بقسنطينة والأربس. والتقى بأيوب على باجة، فهزمه أيوب. وتردى به فرسه، فهلك، ثم هلك محمد القائم بعده بأشهر.

وخرج اسمعيل المنصور لحرب أبي يزيد، فأخرجه عن افريقية. ورام باغاية. فأغلقت في وجهه، ولفظته البلاد، وتوجه المنصور مغربا أثره في ربيع الأول سنة **35** فمر بسبيبة فمرماجنة فملاق فباغاية فبلزمة فنقاوس فطبنة، وأقام بها أياما فرق فيها الأموال وتفقد أحوال الجند. ثم سار إلى بسكرة، وبها أبو يزيد، ففر منه، ثم انقلب إلى مقره، وأفاض بها من إحسانه على الناس استمالة لهم. وكاتب زيري بن مناد وماكسن بن سعد، وأهدى إليهما من التحف والطرف والأموال الجمة والكسي الفاخرة ما جد بهما به إليه فحشدا له من صنهاجة وعجيسة كل ما قدرا عليه. ووصلا بتلك الحشود إليه.

وانتقل المنصور من مقره إلى المسيلة. فوفد عليه رسول محمد بن خزر بطاعته. فأكرمه وأركبه فرسا من أفراسه بسرجة ولجامه. ووصله بعشرة آلاف دينار. ثم خرج في طلب ابن يزيد إلى جبل سالات (**بشد لام ألف**) وانقلب إلى مواطن صنهاجة. فنزل سوق حمزة. وجاءه زيري بن مناد في رجال صنهاجة. فأجزل صلتهم. وخرج على وادي لعلع. فمرض به نحو شهرين. وخالفه أبو يزيد إلى المسيلة فأخذ المنصور إليه السير. فأجفل أمامه إلى جبل كيانة. وأقام المنصور بالمسيلة. ووجه مواليه إلى سطيف وميلة لاستنفار الناس. وجاءه رسول الخير بن محمد بن خزر

في نحو مائة فارس بأنه أقام دعوته بمدينة الأغواط وسائر عمله. وطلب منه ان يبعث بالخطبة والسكة ليضربها على اسمه. فأكرم الرسل وردهم بمطولبهم. وحملهم رسالة ليأمر الخير بن محمد زناتة بالاختلاف إلى المسيلة والقيروان بالأطعمة وغيرها وانه لا يمنعهم شراء السلاح ولا يكلفهم قبالة ولا مغرما.

انحصر أبو يزيد بجبل كيانة وهو قلعة بني حماد، وكان الطعام يأتي إليه من بنطيوس وغيرها. فكتب المنصور إلى زناتة بالأغارة عليهم فانقطعت عنه الميرة، وتقابل الجمعان في شعبان بفحص باتنة، وهي قرية كانت تدعى أدنة بينها وبين المسيلة إثنا عشر ميلا، وليست هي باتنة المعروفة اليوم بجبل أوراس، وانهزم أبو يزيد في هذه المعركة هزيمة نكراء.

وفي غرة رمضان رحل المنصور لحصار أبي يزيد بكيانة، فأحاط بالجبل، وكانت حروب شديدة دامت إلى المحرم سنة **36** ففيه قتل أبو عمار الأعمى. وقبض أبو يزيد مثخنا بالجراح. فأمر المنصور بمداواته والإحسان إليه لكن الدم نزفه فمات في آخر المحرم، فأمر المنصور بسخله وحشو جلده، قطنا وطيف به في البلاد ثم صلب.

وقد كلفت هذه الثورة الحكومة إنفاق أموال طائلة وشغلتها مدة مديدة، فكان السرور بانتهائها عظيما، وأنشدت الشعراء في ذلك القصائد والمقطعات. فمن ذلك قول أحدهم وقد أوقن بقبض أبي يزيد:

يا مخلد بـــن سبيكـــة يا شـــر بيـــت في العشائـــر

ذق ما جنته يداك قبـــ ـــل من الصغائر والكبائـــــر

ذق هول شقك للبطـــو ن وما ارتكبت من الجرائـــــر
يا شـــر مـــن بكيانـــة وكيانـــــة شـــــر البرابـــــر

وقبل القبض على أبي يزيد ظهر بأوراس ثائر آخر. شاب أمرد من أهل القيروان، كان يشتغل بكتب الصوفية، واجتمع عليه في ثورته قبائل كثيرة من زواوة وصنهاجة وعجيسة، فقبض عليه وعلى بعض أتباعه جعفر بن علي صاحب المسيلة.

وكتب إلى المنصور وهو بطبنة يخبره خبرة، ثم جاءه به مقيدا على جمل وعلى رأسه طرطور مشهر، فأمر بسلخه حيا وحشو جلده قطنا ووضعه في تابوت، وكان يصلبه اينما حل إرهابا للناس.

وبعد القبض علي أبي يزيد بقي أبناؤه وبعض أتباعه على ثورتهم، فلما كان المنصور عائدا إلى المهدية هجم على ساقة جيشه الفضل بن أبي يزيد ومعيد بن خزر في جمع عظيم. فهزمهم زيري بن مناد. ثم نزل الفضل من أوراس. وحاصر باغاية. فقتله غدرا باطيط بن يعلى الزناتي في ذي العقدة سنة **36** ثم زحف يزيد بن أبي يزيد إلى باغاية أيضا. فهزم عنها. وكان أخوه أيوب وفد على عبد الرحمن الناصر مستنجدا. وعاد إلى أوراس. فاغتاله عبد الله بن بكار اليفرني. ثم قبض على معبد بن خزر. فقتل سنة **41**.

وبقيت هوارة أوراس على ثورتها. فجهز لها المعز بن المنصور بلقين بن زيري. وجمعوا له بسفح غزالة قريبا من باغاية. فهزمهم. وتشتتوا في بلاد الزاب. وبلغ فلهم بلاد السودان. وولى المعز على باغاية مولاه قيصر

الصقلي فكان له غناء في تمهيد تلك الجهات. سبب له دالة على المعز. فقتلته سنة **349**.

وفي سنة **358** ثار بالجريد أبو خزر الزناتي من الأباضية الوهبية. ودعا للناصر الأموي. وحاصر باغاية وامتدت ثورته بالزاب ووادي ريغ وورقلة. فخرج إليه المعز نفسه. وشتت جموعه. فلحق بجبل نفوسة. وهكذا شقي العبيديون بجبل أوراس كما شقوا بتيهرت. وأصبح تاريخهم بالمغرب حربيا خرابيا أكثر منه مدنيا عمرانيا.

الجزائر بين العبيديين والأمويين:

كانت الإمارات المستبدة على دار الخلافة تكبر أمر الخلافة فلا تدعيها. ولم يجرؤ عليها غير الخوارج وفي بداية القرن الرابع أدعاها عبيد الله المهدي بالمغرب ثم عبد الرحمان الناصر بالأندلس. وكان سلفه مكتفين بأندلسهم. ولهم علاقات تجارية بسواحل المغرب. وفي سنة **290** أسست طائفة من تجارهم وهران وأقاموا بها الدعوة الأموية.

وقد أيد العبيديين كتامة ثم صنهاجة وحاربتهم زناتة فهزموها سنة **315** حتى بلغ عظيمها محمد بن خزر سجلماسة. فكانت للأمويين فرصة انتهزوها. فأرسل الناصر رسله إلى محمد بن خزر. وقدموا عليه بسجلماسة سنة **316** فأجابهم إلى القيام بدعوته. ونهض إلى التل. فاستولى على تنس ووهران وشلف. وكان موسى بن أبي العافية عظيم مكناسة بالمغرب الأقصى من أولياء العبيديين. فنبذهم. واقتفى اثر محمد بن خزر.

نهض العبيديون لمحاربة القبائل الأموية. فكانت وقائع شديدة لكنها غير فاصلة. وكادت تتغلب الأموية أيام صاحب الحمار الذي بلغ أن حاصر المهدية. وفتح حميد بن يصل المكناسي تاهرت. واستولى محمد بن خزر على الزاب. وقتل زيدان الخصي عامل بسكرة للعبيديين.

وفي سنة **35** ضعف أمر صاحب الحمار. فاخذ محمد بن خزر وابنه الخير بدعوة العبيديين في قومهما مغراوة. فحاربتهم يفرن وعظيمها محمد بن صالح. وغدر به عبد الله بن بكار اليفريني. فقتله تملقا لمغراوة ثم اتفقت القبيلتان على موالاة الأموية وملكوا تاهرت. وقتلوا عبد الله بن بكار.

ثم استمال المنصور العبيدي يعلي بن محمد بن صالح. وعقد له على تاهرت وعملها لكنه عاد إلى دعوة الناصر وعقد له على ما بين تاهرت وطنجة. فعظم شأنه. وزحف سنة **43** إلى وهران بدعوى تمريض أهلها في الطاعة. فغلب عليها محمد بن أبي عون وشتت شمل ازداجة. ونقل منهم إلى مدينة فكان.

وغضب محمد بن خزر لتقديم قريعه يعلي بن محمد. فوفد سنة **42** على المعز بن المنصور آخذا بدعوته، وخرج في جيشه لغزو يعلي سنة **47** ثم وفد على المعز سنة **350** وهلك يالقيروان. وقد أناف على مائة سنة.

وخلفه ابنه الخير. وخلا له وجه زناتة بقتل يعلي. فعاد إلى طاعة بني أمية حتى توفي. وخلفه ابنه محمد. وكان جبارا طاغيا. وخرج بلقين بن زيري الصنهاجي لحربه سنة **60** فدارت عليه الدائرة. وكاد يؤسر. فانتحر. والعرب تقول المنية ولا الدنية. وقتل من زناتة سبعة عشر أميرا.

ونهض الخير بن محمد. فجمع أشتات قومه وأعاد الكرة على صنهاجة. فقتل زيري بن مناد. وثأر منه بأبيه المنتحر.

وفي سنة **61** نهض بلقين بن زيري لحرب زناتة. فأجلاها عن الزاب. ثم أجلاها سنة **63** عن المغرب الاوسط. وعاد من تلمسان. وتفرقت زناتة في المغرب الأقصى. تلوله وصحرائه. وتبعهم بلقين سنة **69** فقتل بسجلماسة الخير بن محمد. ونجا ابنه محمد في أعيان من قومه إلى الأندلس مستصرخين المنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد ابن المستنصر بن الناصر .فأجاب صريخهم. واجتمعت زناتة وأولياء الأموية بظاهر سبتة. وأطل عليهم بلقين فرأى ما هاله كثرة. فعاد عنهم. وصدق القائل: «**إذا أردت السلم فاستعد للحرب**».

وفي سنة **77** خالف سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر قومه. فترع إلى صنهاجة العبيدية. فأكرمه منصور بن بلقين. وعقد له سنة **81** على عمل طبنة. وتوفي من سنته. فجدد المنصور العهد لابنه فلفول.

وفي سنة **77** ملك فاسا زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مقيما للدعوة الأموية. وكان أبو البهار بن زيري الصنهاجي عاملا بتاهرت. فنبذ عهد الشيعة. واتحد مع زيري بن عطية. وكان صهره خلوف بن أبي بكر بمدينة تاهرت، فتابعه، ثم عاد إلى العبيدية، وضبط تاهرت، فغفل عنه أبو البهار، ونهض اليه زيري سنة **81** فانتصر عليه، ثم حارب أبا البهار لقعوده عن قتال صهره، ففر أمامه إلى ابن أخيه منصور فرضي عنه،

وأعاده إلى تاهرت، فزحف اليه زيري وانتصر عليه أيضا، واستولى على عمله، فأصبح المغرب الاوسط إلى الزاب أمويا.

وكان ابن أبي عامر يذكر في الخطب بعد المؤيد، وساء ما بينه وبين زيري، فاقتصر في دولته الممتدة من المحيط إلى الزاب على ذكر المؤيد في الخطب، فجهز ابن أبي عامر لحربه الجيوش، وكان اللقاء بنواحي طنجة وتكافأت القوتان، ثم طعن زيري احد غلمانه غدرا وأشيع موته فانهزمت جموعه.

خرج زيري من هذه المعركة جريحا وقصد تيهرت فحاصرها وبها يطوفت ابن بلقين وبلغ الخبر باديس بن منصور بالقيروان فخرج إلى زيري في جموعه ومر بطبنة فقدم بين يديه حماد بن بلقين فلقي زيري على وادي مينة فهزمه زيري وفتح تاهرت واستولى على عملها شلف وتنس وتلمسان ثم فتح المسيلة وحاصر أشير وهنالك انتقضت عليه جراحاته فأفرج عنها ومات سنة **91** وخلفه ابنه المعز فاقصر عن مزاحمة صنهاجة العبيدية وتلطف لبني أمية حتى أعادوه إلى فاس فاقتصر هو وعقبه على ملك المغرب الأقصى.

وكان باديس لما بلغ طبنة استدعى عاملها فلفول، فخشي منه واعتذر عن عدم مقابلته، فلما فارقها باديس عاد إليها فلفول، فترك حمادا لمقابلة زيري، وعاد هو إلى فلفول، وقد امتدت ثورته من طبنة إلى تيجس، وحاصر باغاية، فسرح له باديس أعظم قواده، فقتل وانهزمت

جنوده، فقاد باديس نفسه الجيوش، واخرج فلفول عن باغاية ثم مرماجنة، فلحق بالجبال سنة **89**.

انضم إلى فلفول بعد هزيمته بنو زيري بن مناد المخالفون على باديس، فنزلوا إلى تبسة، وحاصروها، فأجلاهم باديس عنها، وطارد فلفول من مكان إلى مكان حتى ألحقه بالرمال **سنة 91** فتوجه إلى طرابلس وملكها. وأورث بها بني خزر دويلة زناتية.

وهكذا كانت سنة **391** هي خاتمة تطاحن العبيدية والأموية على الجزائر. ولولا طعنة ذلك الغلام لزيري بن عطية ما انتهت الحوادث في هذه السنة وعلى هذا الوجه. فربما نشأ عن الحقير انقلاب كبير.

ان الأمور دقيقها مما يهيج له العظيم

إمارة بني حمدون بالمسيلة:

كان علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسية، قد اتصل بالمهدي وابنه القائم بالمشرق وصحبهما إلى المغرب. ولما بلغوا طرابلس أرسله المهدي إلى أبي عبد الله الشيعي. فأدى الرسالة. وانصرف إلى المهدي بسجلماسة. وبقي في خدمته وخدمة ابنه أبي القاسم.

قال القاضي ابن حماد: «**وفي سنة 315 خرج أبو القاسم محمد ابن المهدي إلى المغرب. فهدنه ومر منصرفه بوادي سهر، فاختط مدينة**

المسيلة. رسمها برمحه وهو على فرسه. وأمر علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسية ببنائها وتحصينها وتحسينها وسماها المحمدية باسمه. فبناها. وجعل لها بابين سمى احدهما باب الأمور والآخر باب القاسمية نسبة إلى أبي القاسم».

«وبلغت المسيلة أيام علي بن حمدور وابنيه جعفر ويحي من العمارة والحضارة إلى الغاية القصوى. وجمعت إليها الأقوات وأنواع المأكولات. فادخرت فكان علي بن حمدون إذا ارتفعت الأسعار يكتب إلى أبي القاسم يستأذنه في البيع. فينهاه عنه، ويأمره بالإستكثار والإدخار فلم تزل الأطعمة مصونة إلى أن خرج المنصور في إتباع أبي يزيد، فكانت عونا له ولإجناده»، هذا ملخص كلامه.

وقال البكري: «هي مدينة جليلة في بساط من الأرض عليها سوران، بينهما جدول ماء يستدير بالمدينة وله منافذ تسقى منها عند الحاجة. ولها أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة، ويجود عندهم القطن، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وبقبليها موضع يعرف بالقباب، فيه قباب من بنيان الأول. وعلى مقربة منها مدينة للأول خربة يقال لها بشليقة (بكسر اللام المشددة)، فيها جدولان من ماء عذب»1هـ.

وفي كتب الإفرنج ان بناحيتها مدينة قديمة تدعى زابي ومدينة يستنيانة التي أسسها سليمان الخصي قائد يستنيان البيزنطي، ولعلهما المذكورتان في كلام البكري.

أصبحت المسيلة عاصمة الزاب بدلا من طبنة. وامتد عملها على الحضنة إلى حدود عمل باغاية شرقا. ويجاور وطن صنهاجة شمالا وغربا. وبه من سكان زناتة كثير. ومنهم في جنوب المسيلة بنو برزال أهل جبل سالات.

رأس على عمل المسيلة علي بن حمدون. وكان له ابنان جعفر ويحي. نشآ بدار أبي القاسم بالمهدية. وربيا مع أولاده. وجمع جيشا لفك حصار صاحب الحمار للمهدية. فالتقى ناحية باجة بأيوب ابن أبي يزيد. واشتد القتال بينهما. فانهزم علي ابن حمدون. وأوى لجهله بالطريق إلى موضع وعر. فغرس بغله فيه. فلما هجموا تواثب فرسان لهم وصهلا. فظنوا ان أيوب غشيهم، فركبوا الخيل، وتفرقوا في الاوعار، فسقط علي بن حمدون من جرف عال، فانكسرت عظامه ومات سنة **34**.

وخلفه ابنه جعفر، وكان له غناء في ضائقة الدولة بثورة صاحب الحمار، وأهدى للمنصور لما نزل بطبنة هدايا جليلة منها خمسة وعشرون فرسا ومثلها نجباء، فعقد له على عمل أبيه، ووازره أخوه: فنبه قدره وعظم شأنه.

ولما عقد المنصور لزيري بن مناد على عمل أشير بارى جعفرا في خدمة الدولة ونافسه أسباب الرفعة، وكان للدولة صاغية اليه وإلى ابنه

بلقين، فأخذا يرميان جعفرا بالميل إلى زناتة حتى أوغرا عليه صدر المعز بن المنصور، فلما عزم على الرحيل إلى مصر أشيع انه مستخلف لبلقين، فعظم على جعفر أن يبقى تحت ولاية منافسه، ثم بلغه أن المعز أرسل اليه أحد مواليه يستقدمه ويطعمه في خلافته، فقويت استرابته وغادر المسيلة في أوليائه بني برزال، ولحق بزناتة سنة **60** فجهز المعز زيري أثره، فكانت حرب صرع فيها زيري. واحتزت رأسه. وذهب بها إلى المستنصر الأموي وفد من وجوه زناتة يرأسهم يحي بن علي. فمهد الأمر لاخيه جعفر ولحق به.

بقي جعفر وأخوه بالأندلس مرموقين بعين التجلة والإكبار تكتفي الدولة بهما وبمن معهما من زناتة في مهماتها، واستعان المنصور ابن أبي عامر بجعفر وشيعته بني برزال على نكب رجال الدولة المزاحيمن له فلما قضى عليهم خشي جعفرا فقتله وفر يحي إلى مصر فترل على العزيز بن المعز إلى أن مات.

وهكذا انتهت حياة جعفر كما تنتهي حياة كل عظيم خطير. فر من المسيلة خشية من المعز فبطش به المنصور بن أبي عامر الذي اضطره الدهر لصحبته:

وإذا خشيت من الأمـــور مقدرا　　　وفررت منه فنحوه تتوجه

وقد أم جعفرا بالمسيلة أبو القاسم محمد بن هانئ أديب الأندلس

الذائع الصيت. قال الفتح في المطمح: «**فناهيك من سعد ورد عليه فكرع ومن باب ولج وما قرع فاستوجع عنده شبابه وانتجع وبله وربابه وتلقاه بتأهيل ورحب وسقاه صوب تلك السحب» 1هـ.**

وقد خلد ابن هانئ جعفرا بمدائحه الكثيرة البليغة. منها قصيدته الفائية. وهي من المطولات المستجادات ومن أبياتها:

كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى

كأن لواء الشمس عزة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وله من أخرى

خليلي أين الزاب مني وجعفر — وجنات عدن بنت عنها وكوثر

فقلبي نأى عن جنة الخلد آدم — فما راقه من جانب الأرض منظر

لقد سرني أني أمر ببالـه — فيخبره عني بذلك مخبر

وقد ساءني أن أراه ببلدة — بها منسك منه عظيم ومشعر[1]

وقد كان لي منه شفيع مشفع — به يمحص الله الذنوب ويغفر

أتى الناس أفواجا إليك كأنما — من الزاب بيت أو من الزاب محشر

فأنت لمن قد مزق الله شمله — ومعشره والأهل أهل ومعشر

ومن أخرى

لم تدنني أرض إليك وإنما — جئت السماء ففتحت أبوابا

ورأيت حوالي وفد كل قبيلة — حتى توهمت العراق الزابا

---

[1] ليته قال مزق الدهر. وكم هنات مثلها لابن هانئ سامحه الله.

أرض وطئت الدر من رضراضها والمسك تربا والرياض جنابا
ورأيت أجبـــل أرضـــها منقادة فحسبتـــها مدت إليك رقابا
سد الإمـــام بك الثغور وقلبها هزم النبـــي بقومك الأحزابا

وله أيضا من أخرى:

أبني العوالي السمهريـــة والموا ضي المشرفية والعـــديد الأكثـــر
من منكم الملك المطـــاع كأنه تحت السوابغ تبع في حميـــــر؟

وقد أورد القصيدة بطولها ابن معصوم في كتابه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر. وقال عقبها: «**يحكى أنه أنشد هذه القصيدة وممدوحه راكب في جيشه. فلما بلغ ذينك البيتين ترجل العسكر كله. ولم يبق أحد راكبا سوى الممدوح. فلا يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره» اهـ.**

الجزائر الصنهاجية:

كان الصنهاجيون بعضهم خاضع لإمارات علوية. وبعضهم مستقلون في جبالهم تحت رؤساء منهم ومن أشهر رؤسائهم مناد بن منقوش كان يقيم الدعوة العباسية ويعترف بأمرة الأغالبة. ومات فخلفه ابنه زيري.

وفي سنة **335** نزل المنصور العبيدي مقرة وكاتب زيري بن مناد وأهدى له أموالا وكسى فاخرة وتحفا وطرفا ملوكية طالبا منه إعانته على

صاحب الحمار، فأجاب طلبه. وكان له أثر محمود في القضاء على تلك الثورة. فبالغ المنصور في تكرمته، وعقد له على قومه.

وكانت الجزائر يومئذ تتركب من أربع ولايات: ولاية باغاية تشمل وطن كتامة من نواحي قالمة وعنابة إلى نواحي سطيف وجيجل. وولاية المسيلة تشمل مواطن عجيسة وكثيرا من مواطن زناتة بالزاب والحضنة. وولاية أشير تشمل مواطن صنهاجة وما يجاورها من زواوة وزناتة. وولاية تاهرت تشمل مواطن مغراوة ويفرن وغالب زناتة.

وفي سنة **47** قتل العبيديون يعلى بن محمد صاحب تاهرت. وتقدموا إلى فاس. فكان فتحها على يد زيري. فأضيف له عمل تاهرت. وفي سنة **60** خرج جعفر بن علي عن المسيلة. وقتل زيري. فولى المعز ابنه بلقين على الأعمال الثلاثة أشير والمسيلة وتاهرت.

وفي سنة **358** فتحت مصر للمعز وأسست له القاهرة. فتأهب للرحيل إليها. وفكر فيمن ينيبه على المغرب ويكفيه هم زناتة وكانت كتامة صادقة التشيع لكنها غير مجاورة لزناتة. وكثيرا من أبطالها أنفقتهم في تأسيس الدولة وتسكين الثورات ثم في فتح مصر والشام. فوقع اختياره على صنهاجة. ولم يغضب كتامة فلم يجعل لعمال صنهاجة عليها سبيلا.

وفي سنة **61** خيم المعز خارج المنصورية. وكانت عاصمته أسسها أبوه المنصور قرب القيروان سنة **334** ثم توجه نحو مصر في صفر سنة **62**. وعقد لبلقين على المغرب. وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح. ولقبه سيف الدولة. ولم يجعل له ولاية على بني أبي الحسن الكلبيين بصقلية ولا على

عبد الله بن يخلف الكتامي بطرابلس. ثم أضيف اليه طرابلس سنة **67** وقسمت الجزائر الصنهاجية يومئذ إلى ولايتين كبيرتين هما أشير وتاهرت. وقسمت ولاية المسيلة: جنوبها أضيف إلى تاهرت وشمالها أضيف إلى أشير، ثم تغلب منصور ابن بلقين على كتامة، فأضاف باغاية إلى أشير.

جدت صنهاجة في اخضاع زناتة، فخرج لها بلقين سنة **63** وخرب من عمران تاهرت ونقل أهل تلمسان إلى أشير، وعاد لها سنة **69** فملك سجلماسة وفاسا، ثم تغلب خزرون بن فلفول على سجلماسة، فخرج له سنة **73** فمات في طريقه في ذي الحجة، واقتفى خلفه أثره في قتال زناتة حتى أخضعوهم.

بلغت صنهاجة من سعة السلطان وقوة النفوذ ما يخولها الاستقلال، ولكنها آثرت الارتباط بالعبيديين لئلا تشوش على نفسها داخليا وخارجيا، وأشفق العبيد يون من عظمة صنهاجة، فاخذوا يغرون بها كتامة التي تتمتع بوطنها لا يلي عليها صنهاجي ولا تنفر معهم في الحروب، وكأنهم تركوا لها هذه الميزة لمثل هذه الدسائس.

ففي سنة **377** ظهر بكاتمة أبو فهم حسن بن نصر داعيا للثورة على صنهاجة، فكتب منصور بن بلقين إلى العزيز بن المعز يستأذنه في قتال كتامة، فوجه له رسولين بالنهي عن ذلك، وأمرهما بالمسير إلى كتامة بعد أداء الرسالة، فلما بلغ الرسولان المنصور نهي العزيز شعر بالمكيدة، فسجنهما وتأهب للحرب، فلما نزل على ميلة نشر البنود وقرع الطبول مزمعا على استئصال أهلها، فخرج اليه النساء والعجائز والأطفال

بالتضرع، فرثى لمنظرهم حتى بكى، وأبقى عليهم ونقلهم إلى باغاية، وخرب سور ميلة، وسار نحو سطيف لايمر بقصر أو مترل الا هدمه، ووقع قتال شديد على سطيف، ثم انهزمت كتامة، وفر أبو فهم إلى جبل وعر، فترل على أهله بني ابراهيم من كتامة فلم يحموه، وقبض عليه منصور، فقتله، وأقام نائبا بميلة وسطيف، ثم سرح الرسولين إلى العزيز، فأرسل له العزيز يطيب قلبه، وأهدى له هدية جليلة، وسكت عن قضية أبي فهم.

وفي سنة **79** ظهر بكتامة أيضا أبو الفرج منتسبا إلى القائم بن المهدي فعظم أمره أكثر من أبي فهم حتى انه ضرب السكة باسمه، وجرت بينه وبين نائب منصور بميلة وسطيف وقائع كثيرة، ثم خرج له منصور نفسه، فأسره ثم قتله. وشحن بلاد كتامة بالعساكر، وبث عماله فيها لتمهيدها وجباية خراجه، ودخلت ضمن الجزائر الصنهاجية و لم يجد العبيد يون سبيلا لإضغاف صنهاجة غير أنهم أعانوا زناتة وأميرهم فلفول بن سعيد على تملك طرابلس وإخراجها من يد صنهاجة.

شعر ملوك صنهاجة بد سائس العبيديين، فجاملوهم ظاهرا حتى ولي المعز بن باديس، فايد السنيين على الشيعيين، وكاتب وزير المستنصر أبا القاسم الجر جرائي (**نسبة إلى جرجرا يا من العراق**) معرضا ببني عبيد، وساعيا في تغييره عليهم، بقول الشاعر:

وفيك صاحبت قوما لاخلاق لهم

لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

فقال الجر جرائي: «**ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحاول أن يخدع شيخا عربيا عراقيا؟**».

وبعد وفاة الجرجرائي أعلن المعز سنة **440** قطع دعوة بني عبيد ومحا اسمهم من السكة وأحرق بنودهم وهدم دار الإسماعيلية. ودعا للعباسيين ونشر راياتهم السود فعجز بنو عبيد على الإنتقام من صنهاجة. فأرسلوا لهم بني هلال وسليم، ثم عاود يحي بن تميم بن المعز دعوتهم. وقام بها أيضا خلفه.

وكان يخالف على ملوك صنهاجة أقرباؤهم ويؤيدون الثوار عليهم ولكن لم يفت ذلك في عضدهم ولا حط من عظمتهم حتى إستقل حماد بن بلقين بالوطن الجزائري سنة **405** فانقسمت صنهاجة على نفسها إلى دولتين شرقية عاصمتها المنصورية ثم المهدية وغربية عاصمتها القلعة فبجاية.

ضعفت الدولة الشرقية بما إنسلخ منها. ثم جاء الهلاليون فملكوا عليها الضواحي وبعض المدن. وتوالت عليها غارات النرمان بحرا حتى ملكوا عليها المهدية آخر معاقله **543** وبذلك إنقرضت دولة صنهاجة الشرقية.

1- أول ملوك صنهاجة العبيدية زيري بن مناد. كان حازما شجاعا شديد البأس حسن السياسة مولعا بالعمران. أسس أشير. وضرب بها سكة بني عبيد. وكلف ابنه بلقين بتمصير مدن الجزائر ومليانة ولمدية.

2- ثم ابنه بلقين وهو أنجب إخوته. ربي بدار المنصور مع أبنائه. وولي لأبيه على مليانة لخضد شوكة زناتة. وكان من أفحل الملوك وأعظمهم نعي إليه أبوه وهو باشير. فنهض لأخذ ثأره من زناتة. وشفى صدره منهم. وانتقل إلى المنصورية لما استخلف على المغرب.

3- ثم ابنه منصور كان ولي عهده. ونعي اليه وهو باشير. فوفدت عليه الوفود معزين ومبايعين. فأحسن مقابلتهم. وأجزل صلاتهم. وخطب فيهم قائلا: «**إن أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر. وانا لا آخذ أحدا الا بالإحسان. ولا أشكر على هذا الملك إلا الله تعإلى. ولست ممن يولي بكتاب ويعزل**» **1هـ**. يعرض ببني عبيد وان لا يد لهم عليه في توليته. ولا قدرة لهم على عزله وكان يتردد بين أشير والمنصورية، جوادا عاقلا عادلا حازما صارما عفيفا عن الدماء وفيقا بالرعية.

ونزع عليه سعيد بن خزرون فوصله بمال كثير. ثم قال له يوما: «**هل تعرف أحد أكرم مني؟ قال نعم! أنا أكرم منك. قال منصور: وكيف؟ قال له لأنك جدت علي بالمال وأنا جدت عليك بنفسي. فاستعمله على طبنة. وعقد لأحد أبنائه على بنت سعيد. فليم على ذلك. فقال: كان أبي وجدي يستتبعان زناتة بالسيف. إما أنا فمن رماني بسيف رميته بكيس حتى تكون مودته طبعا واختيارا» 1هـ**.

وكان أخواه حماد ويطوفت يتداولان عمل أشير، وعمه أبو البهار بتاهرت.

4- ثم ابنه باديس، جاءه سجل العزيز بولاية عهد أبيه سنة **81** ولما توفي أبوه جاءه سجل الحاكم بالولاية، ولقبه نصير الدولة، وكان شجاعا مقداما جوادا محسنا حليما، كان عمه يطوفت عامله على تاهرت، وعمه حماد على أشير، ثم ثار عليه وتحصن بمدينته القلعة فحاصره بها، وتوفي أثناء ذلك بالمسيلة.

5- ثم ابنه المعز، بويع صبيا، ولقبه الحاكم شرف الدولة، وقامت جدته بتدبير الدولة حتى توفيت سنة **411**، وتركته قادرا على الإدارة، وأصيب بفتنة لهلاليين، فانتقل من المنصورية إلى المهدية، وكان أجود أهل بيته ذا دين صحيح رقيق القلب عفيفا عن الدماء حديد الذهن عالما بالأدب يقول الشعر عارفا بالألحان والتوقيعات وعلم الأحجار.

6- ثم ابنه تميم، كان أديبا شاعرا من نظراء ابن المعتز.

7- ثم ابنه يحي كان أديبا ابيضا، ولكن لايقرض الشعر الا في أوقات فراغه، وصرف همته لسياسة رعيته وتدبير دولته، وغزا ساحل أروبا غزوات حتى لقبه النصارى «**الجريء**» وسالموه.

8- ثم ابنه علي بويع بعده، وأنشدته الشعراء معزين ومهنئين، ومن ذلك قول ابن حمديس من أبيات:

ما اغمد السيف حتى جرد الذكر ولا اختفى قمر حتى بدا قمر

9- ثم ابنه الحسن هو خاتمة ملوكهم، نازله النرمان بالمهدية. فلما رأى ما يعجزه غادرها بما خف من نفائسه. وقال: «**سلامة المسلمين من**

القتل والأسر خير لي من الملك والقصر». ونزل الجزائر تحت رعاية ابن عمه يحي صاحب بجاية إلى أن ملكها عبد المؤمن بن علي. فصحبه واغراه بالمهدية. فلما نزل عليها ورأى حصانتها. قال للحسين: «**ما الذي أخرج هذا المعقل من يدك؟ فقال له: أخرجه انقضاء الأمد وعدم الثقة بأحد**».

وكان الحسن أديبا فصيحا عالي الهمة حدبا على الرعية. ولكن عجز عن علاج الدولة. فسقطت سنة **543** بعد ما مر عليها **208** منذ عقد المنصور لزيري على عمل أشير سنة **335** وتوفي الحسن سنة **566** تحت رعاية الموحدين.

الأمير	الولاية		الأمير	الولاية	
	هـ	م		هـ	م
زيري بن مناد	**335**	**946**	ابنه تميم	**454**	**1062**
ابنه بلقين	**360**	**970**	ابنه يحي	**501**	**1107**
ابنه منصور	**373**	**983**	ابنه علي	**509**	**1115**
ابنه باديس	**386**	**996**	ابنه الحسن	**515**	**1121**
ابنه المعز	**406**	**1016**	اخذت منه المهدية	**543**	**1148**

الحالة السياسية والمالية بالجزائر العربية:

الإسلام دين العرب يسوي بين الناس في الحقوق. قد طبق العرب هذا المبدأ بالجزائر. فلم تكن لهم ميزة قضائية على بقية السكان. وأخذوا بيد البربر. فرقوهم في المناصب الدولية حتى تمرنوا بالإدارة. وأصبحوا أيام بني عبيد قادرين على الاستقلال.

ولم يكن البربر يحملون للعرب بغضا سياسيا أو جنسيا بل كانوا يعظمونهم تعظيم التلميذ لأستاذه والمريد لشيخه. وما كان من خلافهم على الإدارة العربية فسببه نفارهم بعضهم من بعض لان الإدارة جمعت بين قبائل بينها احن قديمة متوارثة. فلذلك لم تعطل الثورات عبر الحضارة العربية ماديها وأدبيها.

عني العرب بنشر الأمن ونظام البريد وتنشيط الفلاحة وتربية المواشي. فكانوا يقطعون الفلاحين الارضين. ويخففون عن البادية الخراج. ويكلفون شيوخ القبائل حماية القوافل ويتخذون الفرسان لنقل البريد بين البلدان.

حكى التنسي أن رجلا من سجلماسة بلغه خروج قافلة إلى مصر. فخرج يطوي المراحل خلفها. ومعه ثلاثة آلاف دينار. فلما جاوز قابس إذا بفرسان أخذوا دابته ودنانيره. فرجع إلى الأمير ابراهيم بن الأغلب بالقيروان. فدخل عليه وهو بمقصورة الجامع لسماع الشكاوي وفصل الدعاوي. فقص عليه خبره. وتنحى جانبا فدعا الأمير حاجبه. وسأله هل وجهت خيلا إلى طرابلس؟ فقال نعم وقد عادوا. فأمره بعرض جميع الفرسان عليه بعد القيلولة. وبعد انتهاء مجلسه أمر بالشاكي إلى دار الضيافة. وجاء موعد العرض. فاستدعاه وأجلسه إلى جنبه ليعرفه ان بصر بأحد أصحابه. فكلما عرفه بواحد أوقفه ناحية.

ولما تم العرض أدخل الموقوفون على الأمير. فاستنطقهم حتى اعترف أحدهم. واتى بالدابة والدنانير. وخرج الشاكي وقد أرسل الأمير إلى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليه ووجه معه من أبلغه إياها.

تلك السياسة وهذا العدل أعانا على توسيع نطاق العمران وتنمية موارد الحياة. فكانت الطرق تخترق الوطن جنوبا وشمالا، والسفن تشق عباب البحر مشرقه ومغربه. والمراسي في حركة مستمرة والأسواق في نفاق متصل. وللتجار في بعض النواحي علامات على أبوابهم تدل على مبلغ ثروتهم.

وترقت مع التجارة الصنائع من حدادة ونجارة وحياكة وصياغة وغيرها حتى أصبحت علما دون فيه الكتب. وكذلك الفلاحة. فعظمت النتائج. وساعدت الملوك على تضخيم الملك وإنشاء المدن والقصور. وبعثت الناس إلى مثل ذلك فاستبحر العمران. وضاقت المدن. فاتخذ حولها الفحوص وحضارة الجزائر في هذا الدور شرقية صرفة. و لم تعرف حضارة الأندلس على قربها منها واتصالها بها الا في العصر البربري.

وعظمة ثروة الجزائر العربية تدرك من كتب الجغرافية مثل المسالك والممالك ونزهة المشتاق. وكتب تاريخية حيث تجد مقدار خراج الأعمال وتفصيل هدايا العمال للأمراء والملوك للرؤساء وما ينفق في الولائم والمآتم. وهذا الموضوع وحده يستحق ان يفرد بالتأليف لو وجد من أبناء الجزائر ذا عناية بماضيه. ونحن نثبت ههنا أمثلة قليلة منه ولا يسعنا استقصاؤه.

من ذلك هدايا المنصور العبيدي لزيري بن مناد استشارة لنصرته على صاحب الحمار. قال القاضي بن حماد: «**وكاتب المنصور زيري ابن مناد وماكسن بن سعيد وبعث إليهما أموالا جمة وثيابا جملة. ومن الذهب والعين واللجين ومن التحف والطرف ما استمال به النفوس واستلان به القلوب»اهـ.**

«ما الذي أخرج هذا المعقل من يسدك؟ فقال له: أخرجه انقضاء الأمد وعدم الثقة بأحد».

وقال أيضا: «**وصل زيري بن مناد في قومه إلى المنصور وهو بسوق حمزة. فوصله وفضله. وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه. وأعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لايحيط به الوصف ولا يعمه الحصر. وحمله وحمل أولاده وإخوته وبني عمه ووجوه أصحابه على الخيل العتاق، بالسرج واللجم المحلاة بالذهب والفضة. وأفاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الأموال إفاضة»اهـ.**

وإنما يظهر عظم هذه الهدايا بالنظر إلى ضيقة الحكومة يومئذ. وذكروا ان باديس الصنهاجي منح فلفول بن سعيد الزناتي صاحب طبنة ثلاثين حملا من المال وثمانين تختار من الثياب وعشرة بنود مذهبة ومراكب بالسروج المحلاة، وان صندل عامل باغاية أرسل سنة **408** إلى مولاه المعز بن باديس هدية فيها **335** برذونا بالسروج المحلاة وعبيد وشيء مستكثر.

وهذا غيض من فيض أخذناه من أواخر الدور العربي ليعلم كيف ترك العرب هذا الوطن.

الحالة العلمية والدينية:

الحكومات في حاجة إلى كتاب لتسجيل الأوامر والأحكام وضبط المالية. قال ابن السيد في الاقتضاب: «**وأصناف الكتاب على ما ذكره ابن مقلة خمسة: كاتب خط وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير. فكاتب الخط هو الوراق والمحرر. وكاتب اللفظ هو المترسل. وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل. وكاتب الحكم هو الذي يكتب للقاضي ونحوه ممن يتولى النظر في الأحكام وكاتب التدبير هو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته» اهـ.**

وقد أفاض في بيان آلاتهم وآدابهم. وذكر اصطلاح الخط يومئذ فقال ما ملخصه: «**يحتاج كاتب الخط إلى جودة التقدير والعلم بمواقع الفصول فيكون ما يعزله من البياض عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله على نسب معتدلة، وتباعد ما بين السطور على نسبة واحدة إلى أن يأتي فصل فيزاد في ذلك وسعة الفصول على مقدار تناسب الكلام فان كان القول المستأنف مشاكلا للقول الأول أو متعلقا بمعنى**

منه جعل الفصل صغيرا، وان كان مبانيا له بالكلية جعل الفصل اكبر من ذلك» اهـ.

كان كتاب الحكومات علماء أدباء، وكثير من أمراء الأغالبة والأدارسة وبني عبيد وعمالهم علماء أدباء. وعواصمهم كانت قبلة أمال أهل العلم وكعبة طلابه. قربوا إليهم العلماء والشعراء. وأنشأوا بيوت الحكمة وهي دور الكتب. وأقاموا بها الوراقين يؤدون وظيفة الطباعة اليوم. واقبل الناس رجالا ونساء على العلوم والآداب لتنشيط الحكومات على ذلك. وظهر فحول الفقهاء ونوابغ الأدباء وحكماء الأطباء والمؤرخون والإخباريون الجغرافيون. وظهرت المؤلفات في العلوم الدينية واللسانية والطبيعية والصناعية والفلاحية.

ذكر المقري أن ابراهيم بن احمد الشيباني البغدادي المتوفي بالقيروان سنة **298** كتب للأغالبة. وكان أيام زيادة الله على بيت الحكمة. وادخل في إفريقية رسائل المحدثين وإشعارهم وطرائف أخبارهم. وله تآليف.

ومحمد بن يوسف من أهل القرن الرابع ينقل عنه البكري كثيرا. ذكر المقري أيضا انه ألف ديوانا ضخما في مسالك إفريقية وممالكها وكتبا جمة في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم. وألف تآليف حسانا في أخبار تيهرت ووهران وغيرهما.

وذكر ابن أبي اصيبعة أن اسحق بن عمران البغدادي كان طبيب زيادة الله بن الأغلب. وبه ظهر الطب والفلسفة بالمغرب، وله تآليف كثيرة. وعنه أخذ اسحق بن سليمان المصري الإسرائيلي. وكان طبيب

عبيد الله المهدي وله تآليف جمة. وأخذ عنه ابن الجزار صاحب التآليف العديدة الذي ترك خمسة وعشرين قنطارا من كتب الطب وغيره.

وحياة الجزائر العلمية المتأثرة بما فيها وما حولها من العواصم يومئذ في حاجة إلى تأليف مستقل. ولم توف حتى اليوم حقها.

وكان الناس لانتشار العلم سلفيين اعتقادا وعملا لايتقيدون بمذهب من المذاهب، قال محمد بن الحارث في طبقات علماء إفريقية: **«كان يحي بن عمر الأندلسي يسأل عن الشيء فيجيب عنه، ثم يسأل عن ذلك عينه بعد زمن فلا يختلف جوابه، وكان غيره يختلف قوله، وهذا من يحي يدل على ركود النظر وقلة الإجالة للفكر والاقتصار على المقال المحفوظ»1هـ.**

وقال ان سعيد بن محمد الحداد من أصحاب سحنون **«كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد لايتحلى بتقليد أحد من العلماء، ويقول إنما أدخل كثيرا من الناس إلى التقليد نقص العقول ودنا الهمم، وكان يقول القول بلا علة تعبد، والتعبد لايكون الا من المعبود».**

وأصل هذا القول عندي آية **«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله».**

وقد عرف أهل المغرب أولا مذهب أبي حنيفة، ثم ظهر مذهب مالك في القيروان والأندلس، ودخل الجزائر من هاتين الجهتين، وحمل عليه الناس المعز بن باديس، وقطع ما سواه من مذاهب السنية وغيرهم، هذا في

الفروع أما في الاعتقادات فلم يزالوا سلفيين يرضون عن جميع الصحابة كما قال سعيد بن المسيب. وقد قيل له ما تقول في عثمان وطلحة والزبير: «**أقول ما قولنيه الله عز وجل: ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا**».

وكان الناس يقرأون بقراءة حمزة لا يعرف قراءة نافع الا الخواص إلى ان جاءهم برواية ورش عن نافع محمد بن محمد بن خيرون الأندلسي نزيل القيروان المتوفي سنة **356**.

هذا خبر أهل السنة وهم أكثرية المغربيين، ويوجد بينهم الواصلية والخوارج والشيعة، أتى بمذهب الواصلية طائفة منهم زيد بن سنان الزناتي من أهل القرن الثاني. وكان منهم طوائف بنواحي تيهرت ومزاب والزاب.

والخوارج منهم الصفرية بنواحي وهران وتلمسان وتيلغمت فيما بين الأغواط ومزاب، ومنهم الاباضية بمملكة تيهرت، وبقوا بعد سقوط بني رستم بمزاب وورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل أوراس والزاب والجريد.

والشيعة منهم الزيدية بالمملكة الإدريسية والإسماعيلية بالمملكة العبيدية.

وقضى على هذه المذاهب المعز بن باديس فغلب المذهب المالكي. وانحصر المذهب الإباضي بالصحراء في أرض مزاب وورقلة.

وكان انقسام البربر على تلك المذاهب لما بين قبائلهم من منافسات وعداء، فتلك المذاهب فيهم نتيجة السياسة لا ربيبة العلم، ومع ذلك فلابد أن يبقى المذهب أثرا في إتباعه وان استبدلوا به غيره، لان العامي ليس معه من العلم ما يفرق به بين المذهبين، فتجتمع لديه المتناقضات من حيث لا يشعر، ولو تجرء عالم مفكر لدرس وسطنا مثلا من حيث المعتقدات لالفى بين جنبي الواحد عقائد مختلفة كان أهلها يتقاتلون من أجلها ثم هو لاتحارب أجزاؤه بعضها بعضا!

وقد استغل جهل العامة بحقيقة ما تدين بها كثير من الناس في أوقات مختلفة يتظاهرون لها بمذهبها قولا ويصرفونها عنه فعلا. وكان منهم من ادعى النبوءة فلم يعدم أنصارا. ففي سنة **237** قام رجل مؤذن بناحية تلمسان. وادعى النبوءة. وتأول القرآن على غير وجهه. ونهى عن قص الشعر وتقليم الأظافر. ويقول لا تبديل لخلق الله. كأن إزالة تلك تبديل للخلقة! فاتبعته العامة. وطلبه أمير تلمسان. ففر إلى الأندلس. وشاع خبره هنالك أيضا. فقتله الأمير بعد الاستتابة.

وليست غاية هؤلاء المتنبئين الا نيل سيادة دينية. ولم يحمل الناس على إتباعهم الا الجهل بدينهم لا كما ظن بعض كتاب عصرنا ان البربر أرادوا مقاومة الدين العربي وقرآنه ولسانه بدين وقرآن ولسان بربري نفورا من السلطة العربية. ومن أجاد فهم حوادث المغرب العربي وصدق التاريخ لم يجد ظلا لهذه الفكرة. ويغلط جدا من يعلل حوادث جيل بما يتجدد من أحوال وأفكار جيل بعيد عنه.

سيادة العرب بالبحر الرومي:

تغلب الروم على البحر الأبيض المتوسط بعد الفينيقيين إخوان العرب فسموه بحرنا **MAR NOSTRUM** ثم تغلب عليه العرب فلم يضيفوه إليهم، وقالوا بحر الروم.

استعد العرب لغزو البحر لأول نزولهم بالمغرب. فأنشأ حسان ابن النعمان بتونس دار صناعة. وأمده عبد الملك بن مروان بصناع من القبط. وأنشأ أثره موسى بن نصير دار صناعة أيضا بطنجة فتح بمراكبها الأندلس.

استولى العرب على هذا البحر وجزره من طنجة إلى بيروت. وركبوه للغزو والتجارة. ومن أشهر مراسي الجزائر الحربية بونة (**عنابة**) ومرسى الخرز (**القالة**) قال البكري: «**ومن مرسى بونة تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها. وبشرقي بونة مدينة مرسى الخرز. فيه المرجان. وهي مدينة قد أحاط بها البحر الا مسلكا لطيفا ربما قطعه البحر في الشتاء. عليها سور وبها سوق عامرة. وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة. وفيها تنشأ السفن والمراكب الحربية لغزو بلاد الروم. واليها يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية. بينهما نحو مجريين**»[1] اهـ.

---

[1] المجرى مائة ميل بحرية.

قال الإدريسي: «وعمارة أهلها على صيد المرجان لكثرته بها. يقصد اليه التجار من سائر الأقطار يعمل بمعدنه في كل الأوقات نحو الخمسين قاربا في كل قارب نحو العشرين رجلا»1هـ.

وقال صاحب الاستبصار: «مرجان مرسى الخزر أنفس مرجان الدنيا وانفق شيء بالهند والصين».

قال ابن خلدون في الفصل الثالث من الكتاب الأول: «وكان لكل بلد تتخذ فيها السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتيه يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته. ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم، وشحنها السلطان برجاله وإنجاد عساكره ومواليه. وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته. يرجعون كلهم اليه. ثم يسرحهم لوجههم. وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة».

«وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه. وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم. فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم. وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه. مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش (كريد) وقبرص وسائر ممالك الروم

والإفرنج، وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة».

«تغلب المسلمون على كثير من لجة هذا البحر. وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة. والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية. فتوقع بملوك الإفرنج، وتثخن في ممالكهم. كما وقع في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين».

«وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها. وأساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الأسد على فريسته. وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا. فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح».

«حتى إذا أدركت الدولتين العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة. فملكوها»1هـ.

هذا كلامه في العصر العربي نقلناه بطوله لأهميته. فان من يرى اليوم اختصاص النصارى بهذا البحر يظن ان المسلمين لم تكن لهم عليه يد ويغفل عن آية **«وتلك الأيام نداولها بين الناس»**.

وللأدباء قصائد ومقطعات في وصف الأساطيل. منها قول ابن هانئ الأندلسي:

معطفة الأعناق نحو متونهـــا   كما نبهت أيدي الحواة الأفاعيـــا

إذا ما وردن الماء سوقا لبـــورده   صدرن ولم يشربن غرقي صواديا

إذا اعلموا فيها المجاذيف سرعة   ترى عقربا منها على الماء ماشيا

ولغيره:

ويا للجواري المنشآت وحسنـــها   طوائر بين الماء والجو عومـــــا

إذا نشرت في الجو أجنحة لهـــا   رائت بها روضا ونورا مكممـــا

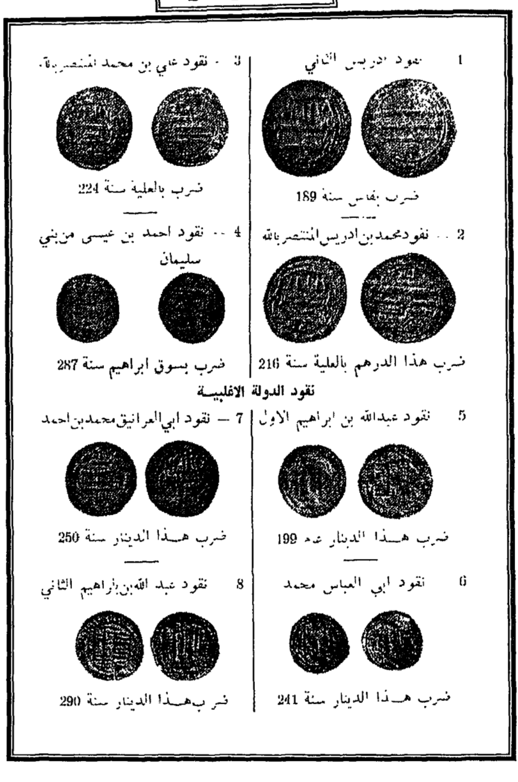
وان لم تهجه الريح جاء مصافحـــا   فمدت له كفا خضيبا ومعصمـــا

مجاذف كالحيات مدت رؤوسهـــا   على وجل في الماء كي تروي الظما

كما أسرعت عدا أنامل حاســـب   بقبض وبسط يسبق العين والفمـــا

هي الهدب في أجفان أكحل أو طف   فهل صنعت من عندم أو بكت دما؟

نقود ادريس الثانى



وعلى م تبكي المجاذيف الدم؟ إنما يبكيه خلف هؤلاء العرب الذين فرطوا في تراثهم وأفرطوا في سباتهم.

والله شاعر العصر احمد شوقي في قوله من قصيدة:

اليس البحر كان لنا غديـرا	وكانت فلكنا البجع الرتاعـا
غمرنا بالحضارة ساحليـه	فما عيا بحائطها اضطلاعـا
ثوارثناه أبلج عبقريـا	ذلول المتن منبسطا وساعـا
ترى حافاته انفجرت عيونـا	ورفت من جوانبه ضياعـا
فما زدنا الكتاب الفخم حرفا	ولا زدنا العصور الزهر ساعا
فعدنا مقعد الآباء منـه	فكنا البهم قد خلف السبـاع

الباب السادس

في نزوح الهلاليين إلى المغرب

تمهيد:

جاء العرب أولا إلى المغرب فاتحين منظمين معمرين (**بالمعنى اللغوي لا السياسي المستعمل اليوم**) مقتصرين على سكنى المدن غير مزاحمين للبربر في أراضيهم، وتمرن البربر على عهدهم في الشؤون الدولية حتى تبؤا المناصب العالية أيام العبيديين فلحق كثير من العرب بالمشرق. ومن بقي منهم بقي خاملا.

فالعبيديون هم الذين اخرجوا العرب من المغرب، ثم كانوا هم الذين أعادوهم اليه لما نبذ الصنهاجيون طاعتهم. لكن هؤلاء العرب جاءوا منتقمين من البربر مزاحمين لهم في أوطانهم لافي سلطانهم.

وهؤلاء العرب هم بنو سليم وبنو هلال وأحلافهم من جشم والخلط والمعقل، وتجتمع هذه القبائل غير المعقل في منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان (**بالعين المهملة**) بن مضر، فسليم هو ابن معوية بن بكر بن هوازن بن سعد بن منصور. وهلال هو ابن عامر بن صعصعة بن

معاوية، ويقال انه كان أوائل القرن الخامس للميلاد. والخلط من بني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة.

أما المعقل فينسبون أنفسهم إلى جعفر بن أبي طالب. ونسابة بني هلال يعدونهم في بطونهم. قال ابن خلدون: «**والأنسب ان يكونوا يمنيين من المعقل واسمه ربيعة إحدى بطون مذحج»1هـ**.

وموطن سليم فيما بين المدينة وخيبر وتيماء. ومجال هلال في بسائط الطائف إلى جبل غزوان شرقي مكة. وجشم حيث هلال وبقية هوازن.وبنو المنتفق بأرض تيماء من نجد. والمعقل بالبحرين. هذه مواطنهم في الجاهلية. وبعد الإسلام حافظوا عليها مع توسعهم في غيرها.

وفي ولاية عبد الله بن الحبحاب انتقلت طائفة من سليم إلى مصر. ثم لحق بهم أحياء من هلال وأحلافهم. واشتغلوا بالفلاحة والكسب. فراشوا وكثروا. ودخل إخوانهم بالجزيرة في دعوة القرامطة سنة **316** وحارب الفاطميون القرامطة بالشام. وانتصر عليهم العزيز بن المعز. فنقل كثيرا من سليم وهلال إلى صعيد مصر. وأمعن في نقل هلال بحيث لم يبق منهم بنجد الا العاجز عن الحرب ونزل بنو قرة من هلال ببرقة.

كانت هذه القبائل بادية ظواعن. اشرف أعمالهم الغارة وأطيب مكاسبهم النهب لم يتهذبوا بآداب الإسلام. ولم يقدر على إخضاعهم لا الأمويون ولا العباسيون ولا الفاطميون. فأكثروا من الفساد. وتضرر بهم العباد والبلاد.

هذه صورة موجزة من خبر هذه القبائل قبل دخولها المغرب. وكان حظ الجزائر منهم بعد نزوحهم اليه قبيلة هلال واحلافها. ولم يدخلها من سليم الا القليل. ولهذا اقتصرنا في عنوان الباب على بني هلال.

نزوح الهلاليين إلى إفريقية:

كان بنو عبيد بمصر يدبرون الثورات بالمغرب كي لا يفقدوا نفوذهم منه. فساء ذلك ملوك صنهاجة. وخشوا ان قطعوا دعوتهم أن يوجدوا السبيل على سلطانهم لمنافسيهم من أقربائهم وشاقيهم من كتامة وغيرها. ولما ولي المعز بن باديس نصر أهل السنة وهم أكثر السكان واضعف الشيعة حتى لا يستطيعوا مقاومته متى قطع دعوة بني عبيد.

وكان وزير بني عبيد المتحكم في دولتهم أبا القاسم الجر جرائي فطمع المعز في استفساده عليهم. ولكن لم ينل معه مراده. وتوفي سنة **438** فخلفه اليازوري. وكان دونه شأنا. فاستخف به المعز وخاطبه بما أحفظه. فاظلم الجد بينهم. وأعلن المعز الدعاء لبني العباس سنة **440** وعجز كل من بني عبيد بمصر وشيعتهم بالمغرب عن إعادة الدعوة العبيدية بافريقية. فرأى اليازوري ان يرسل على المعز عرب الصعيد. فان ظفروا به والا فلها ما بعدها.

وفي سنة **41** أذن اليازوري لعرب الصعيد بإجازة النيل. ورغبهم في أرض المغرب. وأعان من أجابه منهم ببعير ودينار. واقطع زغبة طرابلس وقابس، ورياحا القيروان وباجة، ودريدا قسنطينة.وكتب إلى المعز: «**قد**

أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا».

نزل رعيل العرب برقة. وأعجبتهم أرضها. فكتبوا إلى إخوانهم بالصعيد يرغبونهم في اللحاق بهم. ولكن حكومة بني عبيد لم تأذن لهم هذه المرة إجازة النيل الا بأداء دينارين لكل شخص، فأخذ القادرون على الأداء في الرحيل حتى ضاقت بهم برقة. فبقي بنو سليم، وتقدم بنو هلال إلى افريقية.

كان كل من بني عبيد وصنهاجة يجهلون نتيجة هذه الحملة. فاستكثر المعز من شراء العبيد حتى اجتمع له منهم ثلاثون ألفا. وتقدمت رياح سنة **43** لامتلاك إقطاعها. فأحسن المعز إلى أميرهم مؤنس بن يحي واصهر إليه وأسكنه ببعض قصوره بالقيروان. فحسنت معه نية مؤنس وعاد تشاؤم المعز بمقدمهم تفاؤلا. ففكر في اتخاذ جند منهم يتقوى بهم على بني عمه الحماديين. وعرفه مؤنس عواقب دخول العرب مملكتهم. وحذره فسادهم. فأبى الا استقدامهم. فذهب إليهم مؤنس بدعوى المعز. فقدموا ولكن بدعوى المستنصر الفاطمي واخذوا يعيثون في الأرض فسادا.

ساءت نية المعز مع مؤنس واتهمه بإغراء العرب على الفساد. فقبض على أخيه وأهله بالقيروان. فورم أنف مؤنس لفعلته، وجمع العرب ووضع بين أيديهم زربيه قائلا: هل يستطيع أحد ان يبلغ وسطها دون أن يطأ حواشيها؟ قالوا لا. قال كذلك القيروان لا نملكها الا إذا ملكنا ضواحيها.

استعد المعز لحرب العرب فجمع عبيده وقومه وبقايا عرب الفتح. واستمد ابن عمه الحمادي فأمده بألف فارس. واستنفر زناتة. فأتاه منهم ألف فارس، ولحق برياح زغبة وعدي. وكانت جموع المعز أضعافهم. ولكن قد قيل قديما: «**للكثرة الرعب وللقلة النصر**».

تزاحف الجمعان، فانخزل عرب الفتح إلى إخوانهم الهلاليين، وخانت زناتة وصنهاجة الحمادية، فترك المعز معسكره للعرب، وفر إلى القيروان، واستولى العرب على إفريقية ومدنها مثل ابة والاربس وباجة. وخشي المعز على نفسه بالقيروان. فلحق في خفارة بعض أمراء العرب بالمهدية سنة **43** وذاق وبال سوء ظنه بمؤنس واغتراره بقوته. وتلاحق إلى الهلاليين إخوانهم بالصعيد ونجد. ودامت حركة الهجرة نحو نصف قرن. وموجتها في اتجاه نحو الغرب.

الهلاليون بالجزائر:

تقدم الهلاليون وأحلافهم نحو الجزائر. فدخلوها من ثلاث جهات. الأولى جهة السواحل حيث تقطن كتامة ويضعف نفوذ صنهاجة او ينعدم تقدموا إليها من نواحي باجة فانتشروا على ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة إلى القل إلى جبال بابور.

وتقدم الهلاليين في هذه الناحية اسبق منه في سواها. ولم نجد خبرا عن دفاع كتامة لهم. فأما ان يكون بنو عبيد كتبوا إليها بتأييدهم وأما أن تكون هي التي تقربت منهم نكاية في صنهاجة.

وكلام الإدريسي عن مدن هذه الجهة يدل على حسن علائق أهلها مع العرب فالقالة كانت حالتها التجارية حسنة والعرب يمونونها بحبوبهم. وقسنطينة قال أن أهلها مياسير، بينهم وبين العرب معاملات ومشاركة في الحرث والإدخار.

الجهة الثانية جهة الهضاب ما بين الأطلسين التلي والصحراوي حيث الحكومة الحمادية ثابتة القدم. تقدموا إليها من نواحي الاربس وانتهوا أيام الإدريسي إلى وادي الساحل وجبال البيبان.

دافعتهم صنهاجة عن هذه الجهة. فغلبوها على الضواحي، وحصروها بالمدن الحصينة والقلاع المنيعة، فان الإدريسي لما ذكر المدن الواقعة شمال أوراس ذكر إنها في حال سيئة من حصار العرب لها، قال في حصن ماوس: «**حصن عامر بأهله، وكانت العرب تملك أرضه. وتمنع أهله الخروج منه الا بخفارة رجل منهم**». ودار ملول شرقي طبنة على مرحلة منها، قال: «**إنها مدينة عامرة بها حصن. فيه مرصد مشرف على محال العرب يستطلع منه حركاتهم**». ودار ملول ذكرها ياقوت بلفظ أرملول.

وذكر الطريق من بجاية إلى قلعة بني حماد. وعدد منازلهم فلما بلغ الباب قال: «**وهي جبال يمر يينها الوادي المالح. وهناك مضيق وموضع مخيف. ومنه إلى حصن السقائف إلى حصن الناظور إلى سوق الخميس، وبه المنزل. وهذه الأرض كلها تجولها العرب وتضر بأهلها وسوق**

الخميس، حصن بأعلى جبل. وبه مياه جارية. ولاتقدر العرب عليه لمنعته. وبه المزارع والمنافع قليل. ومنه إلى حصن مطماطة في أعلى جبل إلى سوق الاثنين. وبه المترل. وهو قصر حصين. والعرب محدقة بأرضه. وبه رجال يحرسونه مع سائر أهله. ومنه إلى حصن تافكلات (في غيره تافلكات) إلى تازكي، حصن صغير، إلى قصر عطية على أعلى جبل ثم إلى حصن القلعة مرحلة وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في هدنة. وربما اضر بعضهم ببعض. غير أن أيدي الأجناد بها مقبوضة، وأيدي العرب مطلقة في الأضرار وموجب ذلك ان العرب لها دية مقتولها. وليس عليها دية فيمن يقتل»1هـ.

الجهة الثالثة جهة الصحراء حيث تكثر خيام زناتة الخاضعة لبني حماد. تقدموا إليها من ناحية سبيبة إلي تبسة. وانتشروا جنوب أوراس على قرى الزاب وانتهوا أيام الموحدين إلى مزاب وجبل راشد.

دافعتهم زناتة عن هذه الجهة. وكانت أملك للبأس من صنهاجة لبدواتها وتقارب ما بين حياتها وحياة العرب. فكانت بين الفريقين مواقف صعبة أكثر الهلاليون من ذكرها في أشعارهم. وقتل في بعضها أبو سعدي خليفة اليفرني بالزاب. وهو قائد صاحب تلمسان من بني يعلي. قال ابن خلدون: **«وتغلب العرب على الضواحي في كل وجه وعجزت زناتة عن مدافعتهم بافريقية والزاب. وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب»1هـ.**

ولما استتب الأمر للموحدين نزعت إليهم زغبة ونزلت مع بني بادين من زناتة قبلة المغرب الاوسط من مزاب إلى جبل راشد. واتحدوا على دفاع ابن غانية الميورقي. قال ابن خلدون: «**وانعقد بينهم حلف على الجوار والذب عن الأوطان وحمايتها من معرة العدو في اهتبال غرتها وانتهاز الفرصة فيها. وأقامت زغبة في القفار. وبنو بادين بالتلول والضواحي»1هـ.**

ولما ضعفت الدولة الموحدية المؤمنية ونشأت دولتا بني زيان وبني مرين احتاجت الدولتان إلى العرب لتعزيز سيادتهما. فدخل الهلاليون وأحلافهم شمال المغرب الاوسط من عمالة وهران.

وهكذا تم للعرب استيطان الجزائر بالرهبة من سيوفهم أولا وبالرغبة فيها أخيرا. فاقطع لهم ملوك البربر الإقطاعات وأجزلوا لأمرائهم الصلات. وأضيفت افريقية الشمالية إلى جزيرة العرب جنسيا بعد ما تبعتها دينيا وسياسيا.

نتائج النزوح الهلالي:

أرسل الفاطميون الهلاليين على المغرب انتقاما من المعز ودولة صنهاجة الشرقية فترحوا اليه لاحبا في نصرة الفاطميين ولا بغضا في صنهاجة. ولكن طلبا للرزق بالتقلب في بواديه بين الصحراء والتل.

ولما دخلت رياح افريقية لم تبدأ بالشر حتى كان ما كان من قبض المعز على أسرة أميرها مؤنس. فحمل بسوء سياسته العرب على تنفيذ ما رسم لهم الفاطميون من تملك المناطق المعينة لهم.

كان عدد من أجاز النيل من رياح وزعبة وعدي يربو على ألف ألف نفس. المقاتلة منهم نحو خمسين ألاف وسلاحهم سيف ورمح وقوس ودرع. وكان البربر يفوقونهم عددا ولكن تخاذلوا أمامهم فاكتسب العرب صيتا ملأ قلوب السكان رعبا. والرعب أهم أسباب الفوز في الحرب.

حصرت الحرب العرب في افريقية، ولم يزل إخوانهم يتواردون عليهم من المشرق، فضاق بهم ما احتلوه من الأوطان، ونتج عن ذلك خراب العمران وسوء حياة السكان. وأحصى عليهم الجغرافيون والمؤرخون حتى اقتلاع عود للوقود أو رفع حجر للاثافي.

بقيت الجزائر في نجوة من فساد الهلاليين حتى حالف الناصر بن علناس قبيلة الاثبج وخرج لامتلاك تونس، فأغرى به ابن عمه تميم ابن المعز بقية العرب وكانت وقعة سببية سنة **457** فهزم الناصر. وتبعه العرب إلى القلعة.

قال ابن خلدون: «**فنازلوها وخربوا جنانها واحتطبوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الامصار مثل طبنة والمسيلة. فخربوها وأزعجوا ساكنيها. وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن.**

فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير! وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد» اهـ.

وفي قوله أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير مبالغة أجنبية عن أسلوب التاريخ. فان الإدريسي تتبع الحملة الهلالية أحسن تتبع ووصف طبنة ومقرة والمسيلة وغيرها بالعمران.

عجزت صنهاجة الغربية أمام الهلاليين كأختها الشرقية. وغلبوا أيضا زناتة بالصحراء. ونشأ عن ذلك فوضى في الوطن. فانقطعت الصلة بين المدن بإخافة السبل. وفر الفلاحون من الضواحي. فوقفت التجارة والفلاحة. وانحصرت العمارة والأمن في السواحل شمال قسنطينة حيث لاشر بين العرب والبربر.

كان ضرر الحرب بالجزائر أقل منه بتونس وطرابلس لان الجزائر لم تكن هي المقصودة بهذه الحملة، ولم تطل بها مدة الحرب، وسواحلها حيث كتامة كانت منطقة سلم، ووسطها به معاقل منيعة وجبال حصينة، وجنوبها حيث اشتدت الحرب صحراء ليس فيها كبير عمارة.

والمسؤول عما لحق المغرب من أضرار الحرب هي صنهاجة التي لم تحسن سياسة هؤلاء العرب وجرأتهم عليها بما كان بين دولتيها من تنافس. وقد بالغ كتاب العربية في تقدير تلك الأضرار ثم حملوا الهلاليين مسؤليتها. ذلك لأنهم كتبوا لدول بربرية ولم يكن للهلاليين حكومة تطمعهم في أنعامها. ولبداوتهم لم يهتموا بدعاية سياسية تنشر لهم أو عليهم. واتخذ كتاب الفرنسوية مبالغات كتاب العربية سلما لثلب العرب.

وصاروا يطرون البربر بعد ما كانوا يقذفونهم بأشنع القذائف في الدورين الروماني والبزنطي. واقتصر في هذا الغرض على كلمة واحدة للكاتب العسكري كاريت. قال: «**كان هجوم العرب الفاتحين كالإعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الأشجار والمساكن رمادا تذروه الرياح فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق. وما بقي عن السياسة العربية قائما بالمغرب ذهب به الطبع العربي الهدام. فتمم الهلاليون أعمال التخريب التي ابتدأها الخلفاء الأولون**»1هـ.

أما تجد في هذه الجملة التي غيض من فيض ريح مسيحية القرون الوسطى وروح الاستعمار العصري؟ لعل كاريت تصور حربا أروبية بآلاتها المدمرة واستعار نتائجها لنتائج حرب سلاحها السيف والقوس! ولعل عاطفته على هذا الوطن أمام الهجوم العربي استعارها من إنسان كامل رأى الحملات الاروبية على الأمم المستضعفة! اسمح لي أيها الكاتب أن أقول لك لست بمؤرخ يحترمه القارئ ولا بسياسي يغر البربر فإنهم لا يرضون عن تحاملك على العرب ولاسيما الفاتحين.

البربر يعلمون ان ما نتج عن هجوم الهلاليين ليس ناشئا عن عدواة جنسية أو قسوة حربية ولذلك اختلطوا بهم وأخذوا عنهم عوائد اجتماعية وأخلاقا فاضلة أضافوها إلى عوائدهم وأخلاقهم. واستعرب كثير منهم لما

وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدبا راقيا وإعانة على فهم الدين. واستبدلوا بحياتهم حياة عربية.

فكان نفوذ الهلاليين في البربر اجتماعيا لغويا جنسيا. كما كان نفوذ الفاتحين دينيا سياسيا ويمتاز نفوذ العرب في غيرهم من الأمم بأنه غير ناشئ عن دعاية سياسية وانه خالد خلود الراسيات لايذهب بذهاب سلطانهم ولاتوهن من قوته الدسائس الأجنبية. بل لا يكترث بها الا اكتراث القائل:

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه   أشفق على الرأس لاتشفق على الجبل

الحياة الهلالية:

الهلاليون بداة ظواعن. يسكنون بيوتا يستخفونها يوم ظعنهم. ويكسبون الخيل لركوبهم والأنعام لحمل أثقالهم والتغذي بألبانها واتخاذ الملابس والأثاث من أوبارها وأصوافها وأشعارها. ينتجعون بها الصحراء شتاء والتل صيفا. ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل. ويجمعون أيام كونهم بالتل الحبوب لقوت سنتهم. قال ابن خلدون: «**وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من أضرارهم بإفساد السابلة ورعي الزرع مخضرا وانتهابه قائما وحصيدا. الا ما أحاطته الدولة وزادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها سبيل**» اهـ.

وتغلب الهلاليون على طرق القوافل، فلا يجتازها غيرهم الا بخفارة احدهم. فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية ولكن الهلاليين قاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين التل والصحراء.

ولم يحافظ على حياة الظعن من الهلاليين الا القبائل القوية وأحلافها. أما من ضعف منهم فكانوا يترلون المدن والقرى البربرية. أو يحدثون لأنفسهم قرى بالزاب والصحراء. ويشتغلون بالفلاحة ويستبدلون بالشاة البقر.

وكانت زناتة وبعض البربر على مثل هذه الحياة البدوية من قلب مجيء الهلاليين. لأنها حياة ناشئة عن طبيعة الوطن لا دخل للنسب فيها. ولتشابه الحياتين تأثر الهلاليون بزناتة في بعض عوائدهم. قال ابن خلدون متحدثا عن العرب: «**شعارهم لبس المخيط في الغالب. ولبس العمائم تيجانا على رؤوسهم. يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها. وهم عرب المشرق. وقم يلفون منها الليت والاخدع قبل لبسها. ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها. وهم عرب المغرب. حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر قبلهم. وكذلك لقنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية. وهجروا تنكب القسي. وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين..**». «**فهذه كلها شعائرهم وسماتهم. وأغلبها عليهم اتخاذ الإبل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها،بما كان**

معاشهم منها. فالعرب أهل هذا الشعار من أجيال الآدميين، كما ان الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر، لما كان معاشهم فيها. فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه الا بالعرض. ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولا عند الأكثر، وفي بعضهم خفيا على الجمهور. وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب» اهـ.

ولسان الهلاليين مضري. حافظوا عليه ببداوتهم في المفردات والتراكيب ووجوه البلاغة وأساليب الخطاب. قال ابن خلدون:

«وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك، ولم يفقدوا من أحوال اللسان المدون الا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط» اهـ.

وقد ذكر العبدري في رحلته ـ هو من أهل القرن السابع ـ ان عرب برقة لم يزالوا يعربون أكثر أقوالهم. ويتحدثون بما يعد عند العلماء غريبا. وذكر ما سمعه من أقوالهم المعربة وألفاظهم الغريبة، وعلل ذلك بعدم اختلاطهم بالناس وقال هم أفصح من عرب الحجاز وغيرهم.

فلعل الهلاليين إنما فسد لسانهم بالجزائر لاختلاطهم بالبربر، ويشهد لذلك أننا نرى اليوم عرب الصحراء القليلي الاختلاط بغيرهم أصح عربية وأقوم مخارج حروف، وعرب السواحل المغمورين بالبربر أفسد نطقا

بالحروف وأردى لغة. ومع هذا فالهلاليون أثروا من حيث اللغة في البربر أكثر مما تأثروا بهم.

وذكر ابن خلدون ان بداة العرب شرقا وغربا يمتازون عن أهل الحضر بان القاف لديهم بين مخرجي الكاف والقاف الحضرية، و لم تزل هذه القاف البدوية لعهدنا، وهي مثل القاف الأعجمية التي نجدها في الاعلام البربرية والإفرنجية وغيرها، مثل بلقين وتاقرا وقسال وقوتية، وكان الأقدمون كالبكري يرسمونها جيما، فيقولون بلجين وتاجرا، ومن بعدهم كابن خلدون يرسمونها كافا، فيقولون بلكين، وكتاب عصرنا يرسمونها غينا. فيقولون غسال وغوتية. وانا اختار رسمها قافا اذ هي مثل القاف البدوية مخرجا.

وكانت أخلاق الهلاليين هي أخلاق الجاهلية بما فيها من حسنات وسيئات كالجود والشجاعة وعزة النفس واباية الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار والاعتراف بالجميل والتمدح بالغارة وبغض الصنائع والحرف.

ومعارفهم هي معارف الجاهلية من عناية بالأنساب وكل ما يتصل بحياتهم البدوية، وليس لهم من الإسلام بعد الشهادتين كبير علم أو عمل. وقد تأثروا من هذه الناحية بالبربر، فنبذ فيهم القاطنون بالنواحي الخصبة حياة الغارة والفتن. وحيي فيهم الشعور الديني. وظهر منهم من دعا إلى السنة. ورابطوا في الثغور لحمايتها من النرمان، و لم يعرف عنهم إعانة الكافر أو الاستعانة به حتى كان بنو زيان أواخر أيامهم يستعينون بعضهم

على بعض لنيل الملك بالاسبان النازلين بوهران. فجروا معهم أحلافهم من عامر وزغبة القاطنين بنواحي وهران، فأصبحوا من بعد جندا لنصارى الاسبان.

وللقبائل الهلالية مناطق تتقلب فيها ظعنا وإقامة. ولكل رئيس منها يلقب أميرا أو شيخا أو سيدا. والغالب أن يكون معه من قبيلته رئيس تابع له يلقب رديفا. وقلما تخرج رئاسة القبيلة من بيت إلى آخر. وللرئيس صفات يمتاز بها كبر سن ورجاجة عقل وفصاحة لسان وفضل جود. وليس للحكومة عزله إلا أن تكون قبيلته ضعيفة.

وكثيرا ما تكون الحروب بين الهلاليين أما بين قبيلتين متجاورتين لأسباب أهمها التنازع على وسائل الحياة ولا سيما بالصحراء: وأما بين أفراد القبيلة للواحدة لأسباب أهمها التنازع على الرئاسة. ولا يفض الخصام كالحسام. وينتج عن هذه الحروب ضعف قبيلة واستعلاء أخرى. فتضطر الضعيفة أما للجلاء إلى ناحية أخرى وأما للاحتماء بقبيلة أقوى. فتضع القبيلة الحامية على المحمية عربية أو بربرية ضريبة معلومة يسمونها خفارة. وهي آية الشرف الحربي. واليوم لم يزل لبعض القبائل على غيرها خفارة يقبضونها باسم الشرف الديني. ويحرفون لفظها إلى غفارة كما حرفوا اصل وضعها.

وقد احتاجت الحكومات البربرية إلى القبائل العربية. فقربت رؤساءهم بالمصاهرة والمجالسة. واقطعتهم الأراضي. وإعتمدت عليهم في جباية الخراج وتجنيد الجنود. وعرف العرب أن نعمتهم تلك لاتدوم إلا

بضعف الحكومة. فكانوا يحدثون لها المشاكل ويدبرون عليها الثورات. ويتحدون ضدها متى خشوا قوتها نابذين ما بينهم من تراث. وينقسمون على الحكومات متى تعددت. وقد أصبحت الحكومات الحفصية والزيانية والمرينية كل منها تعتمد على قبائل عربية سلما وحربا.

ولم تكن مشاغبة الهلاليين للكحومات البربرية لطمع في الملك أو طلب للفوضى. وانما كانت لحفظ حياتهم البدوية. وكانت القبائل البربرية تتواثب على الملك إرضاء لشهوات زعمائهم لا لاختلاف مباد أو تباين غايات. ونتج عن سياسة هذين الجنسين المشتركين في الدين والوطن نتائج سيئة عادت عليهم جميعهم بالوبال. وتفصيل الحياة العربية السياسية في الكتاب الثالث إن شاء الله.

قال ابن خلدون: «**وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون. وكان من أشهرهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض. وهم من دريد بن الاثبج. وماضي بن مقرب من قرة. وسلامة بن رزق من كرفة. وشبانة بن الاحمير وأخوه صليصل من بني عطية من كرفة. وذياب بن غانم من بني ثور. ومؤنس بن يحي من مرداس رياح لأمر داس سليم وزيد بن زيدان من الضحاك. ومليحان بن عباس (وفي نسخة ثليجان بن عباس) من حمير. وزيد العجاج بن فاضل. ويزعمون انه مات بالحجاز قبيل دخول إفريقية. وفارس بن أبي الغيث وأخوه عامر (وفي نسخة عابد) والفضل ابن أبي علي. ينسبونهم**

في مرداس والمعنى مرداس رياح كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم. وكان ذياب بن غانم رائدهم في دخول إفريقية. ويسمونه لذلك أبا مخيبر، وشعوبهم لذلك العهد ــ كما نقلنا ــ هم زغبة ورياح والاثبج وقوة وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدي، ولم نقف على إخبارهم. وليس لهم لهذا العهد حي معروف فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل»1هـ.

الهلاليون ومواطنهم بالجزائر:

العرب المستوطنون بالجزائر إنما هم الهلاليون وأحلافهم. أما سليم فإنما تقدمت منهم قبيلة عوف حوالي القرن الثامن من تونس إلى ناحية عنابة.

وأحلاف الهلاليين هم عرب المعقل وإحياء من فزاوة وأشجع من بطون غطفان. وجشهم بن معاوية بن بكر بن هوزان. وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية. وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار وفي بعض نسخ ابن خلدون عترة بالتاء بدل الميم. وثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة. وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر. وطرود بطن من فهم بن قيس عيلان.

هذا ما ذكر ابن خلدون. ولم يعتن بأخبار غير المعقل منهم. وعد باقيهم مندرجين في هلال. وفي الاثبج منهم خصوصا. نعم طرود لم يزالوا

معروفين باسمهم. ودخلوا ارض سوف بعد ابن خلدون. ونقل كاريت عن ابن الرقيق ان السكاكين فيمن دخل مع الهلاليين. وسكون بطن من كندة إحدى القبائل اليمنية.

ولما أخذ ابن خلدون في شرح أحوال هؤلاء العرب قال: «**ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته. ونطوي ذكر من انقرض منهم» 1هـ.**

ونحن نقدم الكلام في المعقل ثم نقفي ببني هلال. تحيز المعقل منذ أمد قديم إلى الهلاليين. ودخلوا معهم المغرب في عدد دون المائتين ونزلوا غربيهم. وانتشروا في الصحارى. فاعتزوا وعفوا وكثروا بمن اندمج فيهم من غير نسبهم من أشجع وفزارة وبني سليم. ومن بني هلال إحياء مع المعقل أيضا من مسلم وسعيد والعمور وكرفة والمهاية وحصين.

ومواطنهم تمتد من قبلة تلمسان إلى المحيط الغربي إلى سجلماسة ودرعة حيث يجاورون الملثمين. وملكوا على زناتة قصور توات وتامنطيت وتيقورارين وورقلة واقتضوا منهم الضرائب.

ومن بطونهم ذوو حسان بالسوس الأقصى، وذوو منصور بين ملوية ودرعة منهم العمارنة والمنبات بطنان يعرفون بالأحلاف. ومن بطون المعقل ذوو عبيد الله بن صقيل وإخوانهم الثعالبة من ثعلب بن علي بن بكر بن صقيل.

أما ذوو عبيد الله فمواطنهم بين تلمسان ووجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة. ويبلغون في رحلتهم إلى

تيقورارين وتوات ويجاورهم شرقا بنو عامر من هلال. وبين القبيلتين حروب.

وهم بطنان الهداج والخراج. يجاورون ذوي منصور غربا والخراج شرقا. والخراج منهم الجعاونة أبناء جعوان. والغسل أبناء غاسول. والمطارفة أبناء مطرف. والعثامنة أبناء عثمان، ومن العثامنة أولاد عبد الملك، وفيهم رئاسة الخراج ومعهم ناجعة من المهايا. ينتسبون تارة إلى المهايا من عياض، وتارة إلى مهايا بن مطرف.

وأما الثعالبة فموطنهم بمتيجة. قال ابن خلدون: «**ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوو عبيد الله في مواطن عامر، لهذا العهد، وكان بنو عامر في مواطن سويد. فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية. فدخلوا من ناحية قزول وتدرجوا إلى ضواحي لمدية. ونزلوا جبل تيطري إلى أن ملك بنو توجين لمدية وغلبوهم على تيطري. فنزلوا إلى متيجة» 1هـ**.

وذكر ابن خلدون انتساب المعقل إلى جعفر بن أبي طالب وفنده. ويظهر لي أن نسب جعفر في الثعالبة صحيح وانه جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك أبناؤه متيحة في القرن الثالث. فلا يبعد أنهم بقوا هنالك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة.

وأما الهلاليون فقبائل عديدة وبطون كثيرة. ولضبط الحديث عنهم نعد هلالا شعبا. ونسلك في تفصيل فروعه الترتيب اللغوي الذي نظمه من قال:

الشعب ثم قبيلة وعمارة بطن وفخذ والفصيلة تابعه

فقبائل هلال هي الاثبج ورياح وزغبة وقرة بن عبد مناف وكلهم أبناء أبي لربيعة بن نهيك بن هلال. وعمائر الاثبج هي دريد وكرفة وعياض والضحاك ولطيف والعمور والعاصم ومقدم. والعمارتان الأخيرتان نقلهم بنو عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى كما نقلوا قبيلة قرة. وعمائر رياح هي مرداس وسعيد وعامر وعلي وعمائر زغبة هي: يزيد وحصين ومالك وعروة.

1- دريد: كانت إليهم رئاسة هلال. ومدحهم شعراؤهم. وكان منهم الحسن بن سرحان رئيس الاثبج أجمعين عند دخولهم افريقية. وأخته الجازية التي كانت تحت الشريف بن هاشم صاحب الحجاز. وولايته عليه من سنة **430** إلى **453** ولهذا الشريف منها ابن اسمه محمد ولي الحجاز بعد أبيه. ولما اجمعوا الرحلة إلى افريقية تحيلوا في نقل الجازية معهم. وتزوجها بعده ماضي بن مقرب من قرة. واجتمع على حربهم من إخوانهم كرفة وقرة وعياض. وكان الظهور غالبا لدريد.

ومن بطونهم أولاد سرور وأولاد عبد الله. وأولاد عطية رئاستهم في فخذ أولاد مبارك بن حباس. ومن أفخاذ أولاد عبد الله أولاد جار الله وتوبة. ورئاسة أولاد جار الله في فصيلة أولاد عنان بن سلام. ورئاسة

توبة بين فصيلتي أولاد وشاح وأولاد مبارك ابن عابر وفي بعض نسخ ابن خلدون عابد بالدال بدل الراء. وهؤلاء أولاد مبارك هم فصيلتنا القاطنون بين بني تليلان وبني خطاب.

ومواطن دريد ما بين بونة وقسنطينة إلى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر. وطارف قرية ذكرها ياقوت. وكان أولاد مبارك ابن حباس يبتلة بن حلوف من ناحية قسنطينة. ثم غلبتهم عليها توبة زحفت إليهم من طارف مصقلة فدثروا وتلاشوا. ثم قعدت توبة عن الظعن واستبدلت الشاء والبقر بالإبل. وعليها قعدت توبة وعسكرة. وأولاد سرور وأولاد جارالله مجاورون لتوبة وعلى سننهم في الحياة. هذه حالتهم لعهد ابن خلدون.

2- **كرفة**: كان لهم جمع وقوة. وبطونهم كثيرة. منها بنو محمد ابن كرفة والمراونة بنو كثير بن مروان بن قطن بن كرفة. وأولاد نابت بن فاضل بن محمد بن كليب. والحدلجات أربع بطون هم بنو كليب بن عطية ابن قطن يعرفون بالكلبة بالباء أو الياء نسختان لابن خلدون، وبنو شبيب بن محمد بن كليب يعرفون بالشببة، وأولاد صبيح بن فاضل يعرفون بالصبحة، والسراحنة أولاد سرحان بن فاضل، ومن أفخاذ أولاد نابت أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة. ومن فصائل أولاد مساعد أولاد علي بن جابر بن مفتاح ابن مساعد. وفيهم رئاسة كرفة.

ومواطن الحدلجات بأوراس مما يلي زاب تهودا. وأولاد نابت أقطعهم الحفصيون جانب أوراس الشرقي والزيبان الشرقية. وبنو محمد والمروانة

تلقاء أولاد نابت ظواعن في القفار. وكرفة كانوا مخالفين لصنهاجة ثم الحفصيين. ولما ضعف نفوذ الحفصيين بالزاب انقبضوا إلى جبل أوراس. وقلما يظعنون إلى تخوم الزاب.

3- عياض: كان لهم عدد وقوة. ومن بطونهم الزبر بنو زبير وأولاد صخر وأولاد رحمة والمهاية والخراج والمرتفع. ومن أفخاذ المرتفع أولاد حناش رئاستهم في فصيلة أولاد عبد السلام، وأولاد تبان رئاستهم في فصيلة أولاد محمد ابن موسى، وأولاد عبدوس أو غندوس نسختان لابن خلدون رئاستهم في فصيلة بني صالح. ورئاسة الخراج في فخذ أولاد زائدة بن عباس. ورئاسة المهاية في فخذ أولاد ديفل.

قال ابن خلدون: «**وعياض نزلوا بجبل القلعة قلعة بني حماد. وغلبوا قبائله على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم.. وطول الجبل من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد ابن زغبة. فأوله مما يلي غنة للمهاية والزبر. وبعدهم المرتفع والخراج. ويلي الخراج غربا أولاد صخر وأولاد رحمة وهذا آخر وطن الأثابج» 1هـ.**

4- الضحاك: كانوا بطونا كثيرة. وهم مفترقون على أميرين منهم هما أبو عطية وكلب بن منيع. ولأول دولة الموحدين غلب كلب أبا عطية واستقل بالرئاسة.

وكان نجعهم بالزاب. ثم تغلب عليهم الذواودة. وأصاروهم في جملتهم. فعجزوا عن الظعن ونزلوا المدن.

5- **لطيف:** بطونهم كثيرة منها اليتامى أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف، واللقامنة أولاد لقمان بن خليفة. ومن أفخاذ اليتامى ذوو مطرف وذوو أبي الخليل وذوو جلال بن معافى. ومن أفخاذ اللقامنة أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان، وبراز بن معن بن محي.

وغلبتهم رياح والذواودة. فانتقل بعضهم على المغرب الأقصى ونزل فريق من براز على العطاف من زغبة. وعجز الباقون عن الظعن فاتخذوا بالزاب الآطام والقرى. ونزلوا مدنه مثل الدوسن وتهودة وبادس وغربيو وتنومة.

قال ابن خلدون: «**وهم عنجهية لم يفارقوها منذ أيامهم القديمة لهذا العهد. وبين المتجاورين منهم بقصور الزاب فتنن متصلة، وعامل الزاب يدرأ بعضا ببعض، ويستوفي جبايته منهم جميعا**»1هـ.

6- **العمور:** ليسوا من الاثبج وانما هم ملحقون بهم، ويحتمل أنهم من عمرو بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال أو من عمر بن رويبة بن عبد الله بن هلال، قال ابن خلدون: «**وليسوا من ولد عمرو بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال**» 1هـ.

وهم بطنان مرة وعبد الله. فمرة على كثرتهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا، وعبد الله فخذان ماضي ومحمد، ومحمد فصيلتان عنان وعزيزة، ومن عنان شكر وفارس، ومن شكر زكرير ومحيا.

وفي العمور فرسان وأكثرهم رجالة وليسوا في ولاء دولة ولا لهم رئاسة ولا ناجعة لافتراق كلمتهم، وبين أولاد شكر فتن متصلة، فحالف أولاد محيا سويد بن زغبة، وحالف أولاد زكرير بني عامر.

وموطن العمور يمتد من أوراس على الحضنة والصحراء إلى جبل راشد المضاف اليوم إليهم، وليس لهم سبيل إلى التل، ونزل أولاد شكر جبل راشد، ثم استقل به أولاد محيا، وطردوا منه أولاد زكرير إلى جبل كسال غربيه، وهو جبل يطل على البيض، وباقي العمور بسفح أوراس إلى مواطن غمرة غربا. وهم تحت طاعة رياح.

7- **مرداس:** بطونهم كثيرة منها الذواودة أولاد ذواد، وصنبر بن عقيل بن مرداس، وسلم بن عقيل، وعامر بن يزيد بن مرداس، ومن الذواودة بنو عساكر بن سلطان وأولاد محمد بن وأولاد محمد بن مسعود بن سلطان وأولاد سباع بن يحي، ومن عامر بنو موسى وجابر وبنو محمد، ومن بني محمد مشهور ومعاو وعلي الملقب سودان ومن مسلم رحمان وأولاد جماعة وفيهم رئاسة مسلم بين أولاد كر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة، وبين أولاد زرارة بن موسى ابن قطران بن جماعة.

وكانت رئاسة رياح لمرداس في صنبر قوم مؤنس بن يحي، ثم صارت للذواودة وكان منهم مسعود بن سلطان وأخوه عساكر. واستمرت الرئاسة في عقبهما.

8- سعيد: من بطونهم أولاد يوسف بن زيد ومن أولاد يوسف أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف، وأولاد ميمون بن يعقوب بن عريف ابن يعقوب بن يوسف، ورئاسة سعيد في أولاد ميمون ويرادفهم أولاد عيسى، وسعيد احلاف لأولاد محمد من الذواودة.

ومع سعيد لفائف من المخادمة والغيوث وهم من ولد مشرق ابن الاثبج ومن نفاث إحدى بطون جذام ومن زنارة إحدى بطون لواتة من البربر.

9- عامر: منهم الأخضر، رئاستهم في أولاد ثامر بن علي من تمام بن خضر، والأخضر ومسلم من مرداس احلاف لأولاد سباع بن يحي من الذواودة و لم يتحدث ابن خلدون عن عمارة علي.

وبطون رياح كانت تنقلب من الجريد إلى القيروان إلى الزاب إلى المسيلة إلى ورقلة. ولهم أقطاع بالحضنة ونواحي قسنطينة وبجاية.

10- يزيد: بطونهم كثيرة، منها جواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة بنو مربع والخشنة بنو خشين وحميان وأولاد لاحق وأولاد معافي وبنو سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد. ومنهم من يزعم ان مهديا هو ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. وليس بصحيح ولبني سعد ثلاث أفخاذ هم بنو منصور بن سعد وبنو ماضي بن رزق بن سعد وبنو زغلي بن رزق.

ولبني يزيد محل من زغبة بالكثرة والشرف وللدول بهم لذلك عناية وهم أول من أقطعتهم الدول بالتلول والضواحي. وكانت رئاستهم

لأولاد لاحق ثم لأولاد معافي ثم صارت لبني سعد واختص بها منهم بنو زغلي.

ويزيد مجاورون غربا للأثبج ورياح. يقطنون سهل حمزة والدهوس وأرض بني حسن من صنهاجة إلى متيجة، وما يتصل بذلك ريفا وصحراء. وهم مقيمون لا يظعن إلا قليل منهم. ويترل معهم إخوالهم عكرمة فإنه ويزيد أبناء عيسى بن زغبة وفي بعض نسخ ابن خلدون عبس بدل عيسى. وفي أيام يغمراسن بن زيان انتقل منهم حميان على صحراء تلمسان. وانتقل فريق من عكرمة إلى جبل كريكرة قبلة السرسو.

11- **حصين:** لهم بطنان عظيمان جندل وخراش. ومن جندل خشعة وأولاد سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل وفي بعض النسخ فضيل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل. ومن أولاد سعد فصيلة بني خليفة ومن خراش أفخاذ أولاد مسعود ابن مظفر بن محمد الكامل بن خراش، وأولاد فرج بن مظفر، وأولاد طريف بن معبد بن خراش يعرفون بالمعابدة. ومن أولاد مسعود فصيلة رحاب بن عيسى بن أبي بكر بن زمام بن مسعود. ومن أولاد فرج فصيلة بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج ومن أولاد طريف فصيلة أولاد عريف.

ورئاسة حصين مفترقة على الفصائل المذكورة. وموطنهم غربي بني يزيد إلى جبل تيطري ونواحي لمدية.

12- **مالك:** بطوهم ثلاثة: بخيس والحرث وسويد. ومن الحرث أفخاذ غريب والعطاف والديالم بني ديلم. ومن غريب فصيلة بني منبع.

ومن منيع بنو مزروع وأولاد يوسف. ومن فخذ العطاف فصيلة أولاد يعقوب. ومن الديالم فصيلتان: العكارمة أبناء عكرمة ابن مزروع بن صالح بن ديلم، وأولاد ابراهيم بن رزق بن رعاية بن مزروع. ومع الديالم إخوانهم بنو زياد من ابراهيم وأولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن والدهاقنة أولاد دهقان بن حسن فإن ديلما هو ابن حسن.

ولسويد أفخاذ منها فليتة وجوثة وصبيح وأولاد ميمون وشبابة ومجاهر. ومن شبابة الحساسنة بنو حسان. ومن مجاهر غفير وشافع ومالف وبورحمة وبوكامل وحمدان وهبرة. ومن حمدان أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان. وهبرة تزعم أنها من قوم المقداد بن الأسود الصحابي البدري. فهم من قضاعة. وقد ينتسب بعضهم إلى تجيب من بطون كندة.

وكانت مواطن مالك جنوب بني توجين المستولين على ما بين سعيدة ولمدية. ثم استولت سويد على بلاد توجين ما عدا جبل وانشريس. وكان لسويد المترلة العليا في دولتي بني زيان وبني مرين. ونزلت هبرة نواحي البطحاء بالضفة اليمنى من نهر مينة. والعطف بسهول غربي مليانة، والديالم قبلة وانشريس. ونزلت بطن بخيس نواحي وهران.

13- عامر: بطونهم ثلاثة أولاد يعقوب وبنو شافع وبنو حميد. ومن شافع وبنو حميد. ومن شافع فخذا بني مطرف والشقارة. ولحميد أفخاذ وفصائل منها بنو عبيد بن حميد، منهم المحارزة بنو محرز بن حمزة ابن عبيد، والعقلة بنو عقيل بن عبيد، والحجز بنو حجاز بن عبيد، ومن

الحجز حجوش وحجيش. ومن حجوش حامد ورباب ومحمد، ومن محمد الولالدة بنو ولاد بن محمد.

ورئاسة عامر في بني يعقوب. وكانت عامر احلافا لبني يزيد يظعنون بظعنهم ثم انتقلوا في عهد بني عبد الواد إلى قبلة تلمسان ولهم جبل تامالة، يتقلبون هناك بن وهران والصحراء.

14- عروة: هم بطنان حميس والنضر ومن حميس عبيد الله ويقظان وفرغ ومن فرغ أولاد نائل ومن يقظان أولاد عايد ومن بطن النضر أولاد خليفة والجماقنة وشريفة والصحارى وذوو زيان وأولاد سليمان.

وأولاد نائل احلاف لأولاد محيا من العمور وبنو يقظان وعبيد الله احلاف لسويد يظعنون معهم. والنضر رئاستهم في أولاد خليفة وهم منتبذون بالقفر ويصعدون إلى أطراف مواطن حصين والديالم والعطاف. والصحارى أكثرهم بجبل مشنتل المضاف اليوم إليهم.

هذه فروع هلال ومواطنهم في القرنين الثامن والتاسع. اعتمدنا في جلها على ابن خلدون مع تصحيح ما فيه من تحريف في الاعلام.

ومن تلك الفروع ما تغيرت أوطانه أو اتسعت فصائله أو اندثر اسمه. وموعدنا ببيان الهلاليين ومواطنهم لهذا العهد الكتاب الرابع ان شاء الله.

وذكر كاريت ان مرمول أحصى مقاتلة عرب الجزائر في القرن العاشر بنحو **(199500)** واعتذر عن قلة هذا العدد بأن مرمول تارة يستند في إحصائه إلى اليقين وأخرى يعتمد على أقل تقدير. قال ويمكن

إحصاء المقاتلة وغيرهم من شيوخ ونساء وصبيان بنحو تسعمائة ألف.
ونحن لا نقفوا ما ليس لنا به علم. وإنما نرى من الجدول الذي نقله عن مرمول أنه أهمل كثيرا من القبائل العربية. فيكون ذلك الإحصاء دون الحقيقية بمراتب. وهذا جدول مرمول:

1- السكاكين

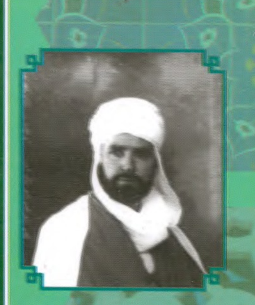
القبيلة	البطـــن	الموطـــن	المقاتلة
أولاد صبير		بين تلمسان ووهران	23000

2- بنو هلال

القبيلة	البطن	الموطن	المقاتلة
بنو عامر		بين تلمسان ووهران	60000
أولاد هوروا		جهة مستغانم	18000 11500
أولاد عقبة		جهة مليانة	03000
أولاد هبرة		بين مستغانم ووهران	؟؟؟
أولاد مسلم		جهة المسيلة	20000
رياح	الحنانشة	بين قسنطينة وبونة	18000
أولاد سعيد		بين تنس ونوميديا	

3- المعقـــل

القبيلة	البطن	الموطن	المقاتلة
أولاد حسان	الثعالبة	في متيجة ونوميديا	44000
أولاد حسان	أولاد سعيد	بين مستغانم وشلف	02000



هو الشيخ مبارك بن محمد البراهيمي الميلي من مواليد قرية الرمامن الموجودة بجبال الميلية (بناحية سطارة) في الشرق الجزائري دعي بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية، ولد بتاريخ 26 ماي 1898م وهناك من يقول سنة 1896م الموافق لسنة 1316هـ. توفي أبوه وعمره أربع سنين كفله جده ثم عمّاه.

بدأ تعليمه بجامع سيدي عزوز بأولاد مبارك بالميلية تحت رعاية الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود حتى أتم حفظ القرآن.

لقد أنهكه مرض السكري منذ سنة 1933م، وعالجه مرات عدة، واشتد عليه بعد وفاة شيخه العلامة ابن باديس، فتدهورت حالته الصحية إلى أن وافاه الأجل يوم 1945/02/09م.

وشيعت جنازته في موكب مهيب يتقدمهم رئيس جمعية العلماء بعد ابن باديس، الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي.

كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث هو أول كتاب صدر في هذا الموضوع، يتناول التاريخ الجزائري من منظور وطني، علما بأن الجزء الأول منه طبع طبعة أولى عام 1928، وهو الجزء الذي يتناول تاريخ الجزائر قبل الإسلام.

ويتأكد النفس الوطني في هذا الكتاب عندما يتناول قصة الكاهنة، فيعتبرها بطلة وطنية، رغم أنها حاربت المسلمين.

لهذا كتب له ابن باديس رسالة بعد اطلاعه على الجزء الأول يقول فيها:

أخي مبارك!

سلام ورحمة، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، وقفت على الجزء الأول من كتابك «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» فقلت لو سميته «حياة الجزائر» لكان بذلك خليقا. فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة كالضاد صورة تامة سوية، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين.

أخي مبارك!

إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها. فليس ـ والله ـ كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال. وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا. وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وأنا ـ واحد من هذا الجيل ـ بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا لأقابل ما لك من حق.

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وإنصاف.

والسلام عليك من أخيك عبد الحميد بن باديس.

وقد حرص الشيخ مبارك على إثبات هذه الرسالة في الج... لأنه يعتبر ابن باديس عظيما من عظماء الجزائر جدير بأن يثبت ...اريخ الذي نتيجة من «نتائج حياة عظماء الأمتين العربية والبر... الشيخ مبارك نفسه.




ISBN : 9947 833 06 3
9789947833063

دار الكتاب العربي